كليــة اللغة العربية بأسيوط
المجلــة العلميــة

ثـلاثيــة السطـوع والقــوة والفخــر
فــي يتيمــة سويـد بـن أبــي كاهـل

إعداد

د/ غـادة جميـل قرنــي محمـد يوسـف
أستـاذ الأدب العربي القديم المساعد
قسم الدراسات الأدبية، كلية دار العلوم، جامعة المنيا.

(الــعـدد الواحد والأربعون)
(الإصـدار الأول... أبريل)
الجـزء الثانــي
(١٤٤٣هـ / ٢٠٢٢م)

ثلاثية السطوع والقوة والفخر في يتيمة سويد بن أبي كاهل

غادة جميل قرني محمد يوسف
أستاذ الأدب العربي القديم المساعد، قسم الدراسات الأدبية، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، مصر.
البريد الإلكتروني: ghadajamil@mu.edu.eg

(ملخص)

تتوجه هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على ثلاثية السطوع والقوة والفخر في يتيمة سويد بن أبي كاهل، فالكشف عن هذه الثلاثية هو كشف عن كيفية تشكل المعنى الكلي في نص اليتيمة. وقد تجلت فكرة السطوع في اليتيمة في أبيات الصدارة التي تخص النسيب وذكرى المحبوبة ووصفها (من البيت ١ إلى البيت ٧)، كما تتجلى أيضًا في أبيات الطيف والخيال (من البيت ٨ حتى البيت ١١، ومن البيت ٤٥ إلى البيت ٥٠)، وتستمر فكرة السطوع حتى نهاية مقدمة النسيب لتشمل فكرة الليل والنجوم وتذكر الشاعر لمحبوبته سلمي (من البيت ١٢ حتى البيت ١٩). وتتجلى فكرة السطوع ممزوجة مع فكرة القوة في وصف الصحراء والمفاوز والخيل القوية التي لازمته، والقطا القوية التي ترد مورد الماء في وقت سطوع الفجر والصبح (من البيت ٢٠ حتى البيت ٢٩). وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى الفخر (من البيت ٣٠ إلى البيت ٤٤)؛ ثم تتطرق فكرة القوة والسطوع إلى اليتيمة مرة أخرى وتتجلى في وصف الرحلة على الناقة القوية والثور الوحشي (من البيت ٥١ إلى البيت ٦٠). وتتجلى فكرة الفخر مرة أخرى بضمير المتكلم (من البيت ٦١ إلى البيت ٦٦)؛ وينتقل من الفخر إلى فكرة إثبات القوة على الحاقدين من الأعداء، والفخر في تحقيق الانتصار عليهم (من البيت ٦٧ إلى البيت ٧٩). وتتجلى ثلاثية السطوع والقوة والفخر في تحقيق النصر على الأعداء (من البيت ٨٠ إلى البيت ١٠٩). إن اليتيمة تعبر عن أغراض الشعر العربي القديم، فقد شملت النسيب والطيف والخيال

والرحلة والحيوان ووصف الصحراء والقوة في مجابهة المخاطر ومقارعة الأعداء والهجاء والفخر الذاتي والقبلي وغير ذلك من أغراض الشعر العربي.

الكلمات المفتاحية: السطوع، يتيمة الدهر، القوة، الفخر، الشعر.

The Trilogy of Brightness, Strength and Pride In the orphan of Suwaid Ibin Abi Kahil

Ghada Jamil Quarni Muhammad Yussif

Assistant Professor of Clasical Arabic Literature, Department of Literary Studies, Faculty of Dar Al Ulum, Minia University, Egypt.

Email: *ghadajamil@mu.edu.eg*

Abstract:

This study aims to shed light on the trilogy of brightness, strength and pride in the orphan of Suwaid Ibin Abi Kahil. The disclosure of this trilogy is to reveal how the overall meaning is formed in the orphan's text. The idea of brightness in the orphan was manifested in the verses of the lead that pertain to the relative and the memory and description of the beloved (from house 1 to house 7), as well as in the verses of spectrum and imagination (from house 8 to house 11, and from house 45 to house 50), and the idea of brightness continues Until the end of Al-Nasib's introduction to include the idea of the night and the stars and the poet's recollection of his beloved Salma (from the 12th to the 19th house). The idea of brightness combined with the idea of strength appears in the description of the desert, the deserts, the strong horses that accompanied it, and the strong cats that return the water supply at the time of the dawn and dawn (from the 20th to the 29th house). The poet then turns to pride (from house 30 to house 44); Then the idea of strength and brightness touches the orphan again and is reflected in

the description of the journey on the strong camel and the wild bull (from house 51 to house 60). The idea of pride is manifested again in the first person (from the 61st to the 66th house); And he moves from pride to the idea of proving strength over the haters of the enemies, and pride in achieving victory over them (from the 67th house to the 79th house). The triple of brightness, strength and pride is manifested in achieving victory over enemies (from the 80th to the 109th house). The orphan expresses the purposes of ancient Arabic poetry, as it included kinship, spectrum, imagination, journey, animal, description of the desert, strength in facing dangers, fighting enemies, satire, self and tribal pride, and other purposes of Arabic poetry.

Keywords: ***Brightness, Orphan of eternity, Strength, Pride, Poetry.***

(١)

سويد بن أبي كاهل شاعر جاهلي مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. أو بعبارة شارح المفضليات، هو: "شاعر مقدم مخضرم، عاش في الجاهلية دهرًا، وعمر في الإسلام عمرًا طويلًا"[١]. ويقال أن: "سُويد شاعر مخضرم ، من المعمرين، حيث شهد عهودًا ثلاثة؛ امتدت من الجاهلية، فصدر الإسلام، وانتهت بحدود عام ستين (٦٠) للهجرة"[٢]. وذكر "الأصفهاني" في "الأغاني" نسبه فهو: "سُويد بن أبي كاهل بن حارثة بن حِسل بن مالك بن عبد سعد بن جُشَم بن ذبيان بن كنانة بن يشكر"[٣]؛ ويضيف أن "خالد بن كلثوم" ذكر أن: "اسم أبي كاهل شبيب"[٤]. أما صاحب "خزانة الأدب" فيقول إن: "سُويد بن أبي كاهل" اسمه "غطيف بن حارثة بن حِسل بن مالك بن عبد سعد بن عدي بن جُشم بن ذبيان بن كنانة بن يشكر بن بكر ابن وائل. ويكنى سُويد بن أبي كاهل أبا سعد"[٥]. ومن ذلك قول سويد:

---

[١] الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٧٩)، المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، الطبعة السادسة (القاهرة: دار المعارف)، ص ١٩١.

[٢] اليشكري، سُويد بن أبي كاهل (١٩٧٢)، ديوان سُويد بن أبي كاهل اليشكري، جمع وتحقيق: شاكر العاشور، مراجعة: محمد جبار المعيبد، الطبعة الأولى (العراق، البصرة: دار الطباعة الحديثة)، ص ٥-٦.

[٣] الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (٢٠٠٨)، الأغاني، تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، المجلد الثالث عشر، الطبعة الثالثة (لبنان، بيروت: دار صادر)، ص ٦٩.

[٤] السابق، ص ٦٩.

[٥] البغدادي، عبد القادر بن عمر (١٩٩٧)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، الجزء السادس، الطبعة الثالثة (القاهرة: مكتبة الخانجي)، ص ١٢٥.

أنا أبو سعدٍ إذا اللَّيلُ دجا دخلْتُ في سربالِه ثُم النجا[1]

وكان أبوه "أبو كاهل" شاعرًا، وهو الذي يقول:

كأَنَّ رحلي على صَقعاءَ حادرةٍ طَيًّا قد ابتلَّ من طلٍّ خَوَافِيها[2]

وكانت أم سُويد بن أبي كاهل "امرأة من بني غُبَر، وكانت قبل أبي كاهل عند رجل من بني ذبيان بن قيس بن عيلان، فمات عنها فتزوجها أبو كاهل، وكانت فيما يقال حاملًا، فلما ولدت سويدًا، ادعاه أبو كاهل ولدًا. ويقال: إنه ولد في بني ذبيان وتزوجت أمه أبا كاهل، وهو غلام يفعة، فستلحقه أبو كاهل وادعاه، فلحق به"[3]. وروي "البغدادي" أن سويدًا كان "إذا غضب على بني يشكر انتمى إلى ذبيان، وإذا رضي عنهم أقام على نسبه فيهم"[4]. لقد كان سُويد بن أبي كاهل متقلبًا ومضطربًا في حياته، كما كان متقلبًا ومضطربًا في نسبه، فتارة ينسب نفسه إلى بني يشكر ويمدحهم، وينسب نفسه إلى بني ذبيان تارة أخرى ويمدحهم. ولهذا نراه يفتخر بانتمائه إلى قبيلة ذبيان، فيقول:

أنا الغطفاني ابن ذبيانُ فابعدوا فَللزِّنج أدنى منكم ويُحابِرُ

أبت لي عبسٌ أن أسامَ دَنيَّةً وسعدٌ وذبيانُ والهِجانُ وعامرُ

---

[1] اليشكري، سُويد بن أبي كاهل (١٩٧٢)، ديوان سُويد بن أبي كاهل اليشكري، ص ٥؛ وراجع: الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (٢٠٠٨)، الأغاني، المجلد الثالث عشر، ص٦٩؛ والبغدادي، عبد القادر بن عمر (١٩٩٧)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، الجزء السادس، ص ١٢٥.

[2] الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (٢٠٠٨)، الأغاني، المجلد الثالث عشر، ص ٦٩؛ الصقعاء: التي لها بياض في وسط رأسها من الخيل والطير. طيا: جائعة.

[3] اليشكري، سُويد بن أبي كاهل (١٩٧٢)، ديوان سُويد بن أبي كاهل اليشكري، ص ٦.

[4] البغدادي، عبد القادر بن عمر (١٩٩٧)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، الجزء السادس، ص ١٢٧.

وحـــيٌ كـــرامٌ وســـادةٌ مـــن هـــوازِنٍ لهـم فـي الملِمَّـاتِ الأنُـوفُ الفـواخرُ[1]

ثم نراه يفتخر بمآثر بني يشكر متمثلة في يزيد بن حارثة اليشكري، فيقول:

ومنّـــا يزيـــدٌ إذْ تَحَـــدَّى جُمُـــوعَكم فلَـــم تَقْرَبـــوه المرزبـــان المُسَـــوَّر

وأحجمـــتم حتـــى عـــلاه بصـــارمٍ حســـامٌ إذا مـــسَّ الضـــرِيبةَ يبتـــر[2]

وعلى الرغم من ذلك التقلب والاضطراب في النسب والحياة، فإن "سويد بن أبي كاهل" يعد من الشعراء الفحول؛ وضعه "ابن سلام الجمحي"، في كتابه: "طبقات فحول الشعراء"، في الطبقة السادسة، مع عمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، وعنترة بن شداد، وهم أربعة رهط لكل واحد منهم واحدة[3]. وأشار "ابن سلام" أن سويدًا "له قصيدةٌ أولها:

بَسَـــطَتْ رَابِعـــةُ الحَبْـــلَ لَنَـــا فمَـــدَدْنا الحَبْـــلَ مِنْهـــا مـــا اتَّسَـــعْ

وله شعر كثير، ولكن برزت هذه على شعره"[4]. وقد حققت هذه القصيدة شهرة واسعة في العصر الجاهلي لما حفلت به من معاني جليلة وحكم بليغة؛ وقد أشار "الخالديان" في "الأشباه والنظائر" أن هذه القصيدة من أجود أشعار أهل الجاهلية، كما أنها مقدمة في قصائدهم[5]؛ هذا ما أكده الأصمعي عندما قال: "كانت العرب

[1] اليشكري، سُويد بن أبي كاهل (١٩٧٢)، ديوان سُويد بن أبي كاهل اليشكري، ص ١٨.

[2] السابق، ص ٢٠.

[3] راجع، الجمحي، محمد بن سلام (١٩٨٠)، طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، السفر الأول (جدة: مطبعة المدني)، ص ١٥١-١٥٣.

[4] السابق، ص ١٥٣.

[5] راجع: الخالديان، أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد (١٩٦٥)، كتاب الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، حققه وعلق عليه: السيد محمد يوسف، الجزء الثاني (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر)، ص ١٧٧.

تفضلها، وتقدمها، وتعدها من حكمها، وكانت في الجاهلية تسمى اليتيمة، لما اشتملت عليه من الأمثال"[1].

وقد ورد في لسان العرب أن كل شيء مفرد بغير نظيره فهو يتيم، ويقال درة يتيمة، وقال الأصمعي: اليتيم الرملة المنفردة، وقال أيضًا كل منفرد ومنفردة عند العرب يتيم ويتيمة[2]؛ وأضاف "الزمخشري": "من المجاز درة يتيمة، وهذا بيت يتيم، وهذه صريمة يتيمة: للرملة المنفردة من الرمال"[3]. لقد كانت عينية سويد بن أبي كاهل درة يتيمة تتسم بالتفرد والتميز، ربما كان ذلك سببًا في وصف "طه حسين" يتيمة سويد بن أبي كاهل بأن: "هذه المطولة البديعة من أروع الشعر العربي وأرقاه، ومن أعذبه وأحسنه موقعًا في السمع، ومسلكًا إلى النفس، وإذا كان شعر صاحبها قد ضاع، فإنها تكاد تغني عما ضاع من شعره، لأنها تصور مذهبه في الشعر، وحظه من إجادته تصويرًا قويًا واضحاً. ذلك أنها جمعت ألوانًا من فنون الشعر التي كان يطرقها القدماء، وأكبر الظن أنها جمعت فنون الشعر التي كان يطرقها سويد نفسه، ففي القصيدة غزل طويل مكرر، وفي القصيدة وصف، وفيها فخر بقومه، وفيها فخر بنفسه، وفيها بعد ذلك هجاء لخصومه ومنافسيه، وما أظنه طرق فناً آخر غير هذه الفنون، إلا أن يكون المدح الذي يغني عنه الفخر أحسن الغناء"[4].

---

[1] الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (٢٠٠٨)، الأغاني، المجلد الثالث عشر، ص٦٩؛ وراجع: البغدادي، عبد القادر بن عمر (١٩٩٧)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، الجزء السادس، ص ١٢٦؛ واليشكري، سُويد بن أبي كاهل (١٩٧٢)، ديوان سُويد بن أبي كاهل اليشكري، ص ٦.

[2] راجع: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (١٩٥٥-١٩٥٦)، لسان العرب، المجلد الثاني عشر، مادة "يتم" (بيروت: دار صادر)، ص ٦٤٦.

[3] الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (١٩٩٨)، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، مادة يتم (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص ٣٨٧.

[4] حسين، طه (١٩٨٩)، حديث الأربعاء، الجزء الأول، الطبعة الرابعة عشرة (القاهرة: دار المعارف)، ص ١٥٦.

لقد كان التميز والتفرد الذي اتسمت به يتيمة سويد بن أبي كاهل سببًا في التغني بها في كل موقف من مواقف الحياة اليومية المتنوعة، وكانت اليتيمة أيضًا مثالًا حكيمًا يقدم للناس على سبيل العظة والعبرة. ولقد روى "ابن عبد ربه"، في: "العقد الفريد"، أن "الحجاج بن يوسف الثقفي" وهو يخطب الناس من على المنبر ملأ صوته المسجد بأبيات سويد بن أبي كاهل، حيث يقول:

رُبَّ مَــنْ أَنْضَــجْتُ غَيْظًــا صَــدْرَه ... قــد تَمَنَّــى لِــيَ مَوْتًــا لَــمْ يُطَــعْ

ســاء مــا ظنــوا وقــد أبليــتُهم ... عنــد غايــاتِ المــدى كيــف أقــعْ

كَيْــفَ يَرجــون سِــقاطِي بَعْــدَمَا ... شــمل الــرَّأسَ مشــيبٌ وَصَــلَعْ[1]

واستشهد "الجاحظ" بالبيت الثاني والسبعين من اليتيمة، في كتابه: "الحيوان":

٧٢- لَــمْ يَضِــرْنِي غَيْــرَ أنْ يَحْسُــدَنِي ... فَهْــوَ يَزْقُــو مِثْــلَ مــا يَزْقُــو الضُّــوَعْ[2]

مستدلًا على صوت الضُّوَع (ذكر البوم) في باب ما قيل من الشعر في الهامة والصدى[3]. وأشار "طه حسين" إلى أن يتيمة سويد بن أبي كاهل "كانت في العصر القديم شائعة ذائعة يحبها العرب، ويكلفون بها، ويتمثل الخطباء المجيدون بأبياتها،

[1] راجع: ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (١٩٥٣)، العقد الفريد، تحقيق: محمد سعيد العريان، الجزء الخامس (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى)، ص ٢٧١. وراجع أيضًا: ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (١٩٨٢)، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، الجزء الأول (القاهرة: دار المعارف)، ص ٤٢١.

[2] الضوع: ذكر البوم. يزقو: يصيح. يقول: ليس له إلا الصياح.

[3] راجع: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (١٩٦٥)، كتاب الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الجزء الثاني، الطبعة الثانية (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي)، ص ٣٠٠.

ويحرص الرواة على روايتها، ويؤثرونها على كثير من الشعر، ويزعمون أن العرب كانت تسميها اليتيمة"[١].

أعتقد أن يتيمة "سويد بن أبي كاهل" أثبتت جدارتها، والتفرد بنفاستها، وبلوغها مكانتها المرموقة بين طوال القصائد الجاهلية، "وأكثر ما يطبع هذه القصيدة أنها ترجمة ذاتية ،أو قل هي قصيدة "غنائية" حملت هموم صاحبها (شاعرًا جاهليًا – إسلاميًا)عاش في بيئة اجتماعية شهدت تحولات كثيرة، وعاشت توترات وتناقضات بقيت بين مدٍّ وجزرٍ، وبين كمون وسفور. والقصيدة سجل حي لفحولة الشعر الجاهلي من جهةٍ، وفحولة الشعر الإسلامي من جهة أخرى"[٢]. لقد كانت يتيمة "سويد بن أبي كاهل"، كما طرح "ابن قتيبة" في كتابه: الشعر والشعراء، "من أغلى الشعر وأنفسه"[٣]؛ وحققت اليتيمة الجودة الشعرية ورصانة المعنى، ولهذا فـ "النقاد القدامى لم يشيروا إلى شيء من العيوب في قصيدة سويد، إنما رأوها قصيدة مستجادة، حسنة، فاحتفوا بها، وأنزلوها المنزلة اللائقة بها، فهي درة يتيمة، امتازت بكل ما يتميز به الفن الشعري القائم على التميز والاختيار"[٤]. واليتيمة تتميز بعذوبة ألفاظها، ورصانة أسلوبها، وجزالة معانيها، وربما كان هذا سببًا في اختيار "المفضل الضبي" لها ووضعها في متخيره "المفضليات".

[١] حسين، طه (١٩٨٩)، حديث الأربعاء، الجزء الأول، ص ١٥٤.

[٢] أبو حمدة، محمد علي (١٩٩٥)، في التذوق الجمالي لقصيدة سويد بن أبي كاهل اليشكري: دراسة نقدية إبداعية (الأردن، عمان: دار عمار للنشر)، ص ٥.

[٣] ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (١٩٨٢)، الشعر والشعراء، الجزء الأول، ص ٤٢١.

[٤] حمدان، فتحي عبد المحسن محمد (٢٠١٠)، قراءة في عينية سويد بن أبي كاهل، مجلة كلية التربية، القسم الأدبي، العدد ٣، مجلد ١٦ (القاهرة: كلية التربية، جامعة عين شمس)، ص ٨٠.

(٢)

تقع اليتيمة في مائة وثمانية ١٠٨ بيتًا في شروح المفضليات[١]؛ وجاءت اليتيمة في ديوان "سويد بن أبي كاهل"، الذي جمعه وحققه "شاكر العاشور"، في مائة وتسعة ١٠٩ بيتًا[٢]؛ وسوف تعتمد هذه الدراسة على نسخة الديوان؛ وقد أشار محقق الديوان أن البيت ٨١ لم يرد في المفضليات، ولا في أي مرجع آخر؛ لكنه أشار إلى ورود البيت في "الأشباه والنظائر" لـ "الخالديان"[٣]، وهو:

كـــمَ مُســـرٍ لـــي حِقـــدًا قلبُـــهُ فـــإذا قَابَلَـــهُ شَخْصـــي رَكَـــعْ

تتوجه هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على ثلاثية السطوع والقوة والفخر في يتيمة سويد بن أبي كاهل، فالكشف عن هذه الثلاثية هو كشف عن كيفية تشكل المعنى الكلي في نص اليتيمة. وقد تجلت فكرة السطوع في اليتيمة في أبيات الصدارة التي تخص النسيب وذكرى المحبوبة ووصفها (من البيت ١ إلى البيت ٧)،

[١] راجع: الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٧٩)، المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ص ١٩٠-٢٠٢؛ والأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار (١٩٢٠)، شرح ديوان المفضليات، عني بطبعه ومقابلة نسخه وتذييله بحواشي وروايات لعدة لغويين وعلماء: كارلوس يعقوب لايل (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، على نفقة كلية أُكْسفُرْد)، ص ٣٨١-٤٠٩؛ والتبريزي، يحيي بن علي الخطيب (١٩٨٧)، شرح اختيارات المفضل، تحقيق: فخر الدين قباوة، الجزء الثاني، الطبعة الثانية (بيروت: دار الكتب العلمية)، ٨٦٧-٩٢٠.

[٢] راجع: اليشكري، سُويد بن أبي كاهل (١٩٧٢)، ديوان سُويد بن أبي كاهل اليشكري، ص ٣٢-٣٥.

[٣] راجع: السابق، ص ٣٢.

كما تتجلى أيضًا في أبيات الطيف والخيال (من البيت ٨ حتى البيت ١١، ومن البيت ٤٥ إلى البيت ٥٠)، وتستمر فكرة السطوع حتى نهاية مقدمة النسيب لتشمل فكرة الليل والنجوم وتذكر الشاعر لمحبوبته سلمي (من البيت ١٢ حتى البيت ١٩). وتتجلى فكرة السطوع ممزوجة مع فكرة القوة في وصف الصحراء والمفاوز والخيل القوية التي لازمته، والقطا القوية التي ترد مورد الماء في وقت سطوع الفجر والصبح (من البيت ٢٠ حتى البيت ٢٩). وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى الفخر (من البيت ٣٠ إلى البيت ٤٤)؛ ثم تتطرق فكرة القوة والسطوع إلى اليتيمة مرة أخرى وتتجلى في وصف الرحلة على الناقة القوية والثور الوحشي (من البيت ٥١ إلى البيت ٦٠)؛ وتتجلى فكرة الفخر مرة أخرى بضمير المتكلم (من البيت ٦١ إلى البيت ٦٦)؛ وينتقل من الفخر إلى فكرة إثبات القوة على الحاقدين من الأعداء، والفخر في تحقيق الانتصار عليهم (من البيت ٦٧ إلى البيت ٧٩). وتتجلى ثلاثية السطوع والقوة والفخر في تحقيق النصر على الأعداء (من البيت ٨٠ إلى البيت ١٠٩). إن اليتيمة تعبر عن أغراض الشعر العربي القديم، فقد شملت النسيب والطيف والخيال والرحلة والحيوان ووصف الصحراء والقوة في مجابهة المخاطر ومقارعة الأعداء والهجاء والفخر الذاتي والقبلي وغير ذلك من أغراض الشعر العربي.

(٣)

يقول سويد بن أبي كاهل[١]:

١- بَسَــطَتْ رَابِعَــةُ الحَبْــلَ لَنَــا فَوَصَــلْنا الحَبْــلَ منهــا مــا اتَّسَــعْ[٢]

٢- حُــرَّةٌ تَجْلُــو شَــتِيتًا وَاضِــحًا كَشُــعَاعِ الشــمسِ فــي الغَــيْمِ سَــطَعْ[٣]

٣- صَــقَلَتْهُ بِقَضِــيبٍ نَاضِــرٍ مِــنْ أَرَاكٍ طَيِّــبٍ حتــى نَصَــعْ[٤]

٤- أَبْــيَضَ اللَّــوْنِ لَذِيــذًا طَعْمُــهُ طَيِّــبَ الرِّيــقِ إذا الريــقُ خَــدَعْ[٥]

٥- تَمْــنَحُ المِــرْآةَ وَجْهًــا وَاضِــحًا مثلَ قَرْنِ الشمسِ فــي الصَّحْوِ ارْتَفَعْ

٦- صَــافِيَ اللَّــوْنِ وطَرْفًــا سَــاجِيًا أَكْحَــلَ العَيْنَــيْنِ مــا فيــهِ قَمَــعْ[٦]

٧- وقُرُونًــا سَــابِغًا أَطْرَافُهــا غَلَّلَتْهــا رِيــحَ مِسْــكٍ ذِي فَنَــعْ[٧]

اتسمت مقدمة سويد بن أبي كاهل بصفة عامة، ومقطع النسيب بصفة خاصة، بالتميز والاختلاف عن سائر المقدمات الغزلية الجاهلية الأخرى، فسويد لم يتحدث في نسيبه عن هجر المحبوبة وفراقها، وصدها وانفصالها وقطعها له، وإنما تحدث عن قربها وودها، ووصلها القوي له، فبادلها وصلًا بوصل وودًا بود؛ إن هذه المقدمة تشير إلى حبل قوي من المودة واتصال التوافق العاطفي؛ ولقد أبدى "طه حسين" إعجابه بهذا المطلع المتفرد عن غيره فقال: "وانظر إلى هذا المطلع كيف

[١] اليشكري، سُويد بن أبي كاهل (١٩٧٢)، ديوان سُويد بن أبي كاهل اليشكري، ص ٢٣-٢٤.

[٢] بسطت: مدت. رابعة: صاحبته يتغزل بها. الحبل يريد به الوصل. ما اتسع: ما امتد.

[٣] الشتيت: المتفرق، أراد أسنانها المفلجة. الواضح: الأبيض.

[٤] الصقل: الجلاء. ناضر: ناعم أخضر ريان. الأراك: شجر يتخذ منه السواك المعروف وهو أجود سواك. نصع: خلص لونه.

[٥] خدع ريقه: إذا تغير وفسد.

[٦] الساجي: الساكن. ما فيه قمع: خالي من وجع أو ورم.

[٧] القرون: الدوائب. السابغ: الطويل التام. غللتها: دخلت فيها. فنع المسك: كثرت وانتشرت رائحته.

ذهب فيه مذهب المثل، ومذهب المثل البدوي الساذج القريب؟ فشبه ما يكون بين الحبيبين المتواصلين في مودةٍ وإسماح بالحبل قد أخذ بطرفيه شخصان لا خصومة بينهما ولا مقاومة ولا مشادة، وإنما هي السماحة واللين"[1]. فالمودة التي عالم من الأمن والوصل الدائم والحبل القوي المتين دفعت سويد إلى التغني بجمال محبوبته: رابعة، فراح يصفها وصفًا جميلًا متفردًا، ابتعد فيه عن أشكال الوصف الحسي المباشر، الذي اعتاده بعض من الشعراء الجاهليين، حيث إن "رابعة اسم المحبوبة أو وصف لها بمعنى عاطفة وواصلة أو هي المولودة الرابعة لأمها والوجه الأول هو الجيّدُ، وقد يُضمن الاسم معنى مناسبًا للسياق الذي يُوردهُ فيه، هي اسمها رابعة وهي أيضاً عاطفة لأنها مدت حبل المودة وبسطته لنا"[2].

أعتقد أن فكرة الوصل وتجسيد المودة في العلاقة بين سويد ومحبوبته دفعته إلى اللجوء إلى استخدام فكرة السطوع والبياض والنقاء في وصف "رابعة"، أو على حد تعبير "عبد الله الطيب": "والشاعر العربي يُضمن النسيب إشاراتٍ إلى أغراضه التي يتناولها في القصيدة، المحبوبة هنا عاطفة والشاعر على صلة حسنةٍ معها وسيدوم على ذلك مادامت هي على ذلك"[3]؛ ومن ثم وصف "رابعة" بأنها حرةٌ أصيلة تجلو فمًا حلو الحديث، أسنانها المفلجة تبدو فيه كأنها لؤلؤ متفرق منثور مشرق لماع متلألأ كشعاع الشمس الساطعة يتدفق ضياءً وسط الغيوم، ويشير "شوقي ضيف" في كتابه: العصر الجاهلي إلى أن العرب "كانوا يشبهون المرأة بالبدر والشمس، وألم سويد بن أبي كاهل بهذا التشبيه، وحاول أن يخرجه إخراجًا جديدًا فقال:

---

[1] حسين، طه (١٩٨٩)، حديث الأربعاء، الجزء الأول، ص ١٥٧.

[2] الطيب، عبد الله (١٩٩١)، قصيدة سويد بن أبي كاهل: بسطت رابعة الحبل لنا، شرح وتعليق، ص١٦.

[3] السابق، ص ١٨.

حـــــرةٌ تجلـــــو شـــــتيتًا واضـــــحًا كشــعاع الشــمس فــي الغيــب ســطع

فجعل أسنان صاحبته المفلجة البيضاء كشعاع الشمس يبزغ من خَلل الغيم"[1]؛ وكأن شعاع الشمس وبريقه ولمعانه لا يمنح نفسه إلا لـ "رابعة". ولقد صرح "سويد" بأن للشمس قرنًا، وأن لمحبوبته رابعة قرونًا سابغة، هذا يؤكد اقتران السطوع الذي أقرته الطبيعة للشمس بالسطوع الذي أقره "سويد" لـ "رابعة"؛ كما يتضافر شعاع الشمس مع السواك المصنوع من شجر الأراك الطيب، ومن ثم "بدا شعاع الشمس صديقًا للأراك الطيب الذي يبذل غاية جهده في أن يجمع بين الممتع والمفيد. لا يقصر في استيضاح العلاقة بينهما. ولا يقصر في نظره إلى الشمس عن هذا الاستيعاب الذي ينجو به من الفزع والضيق بالسطوع"[2]. ويبدو أن النقاء اللوني وشعاع الشمش الصافي تأكيدًا لفكرة السطوع.

و"سويد" جعل رابعة حرة، والحُرَّة "ضد الأَمَة، ذلك أنه (الشاعر) جعلها البادئة بالسلام والكلام، وبسطة الوجه والبشاشة، وهو أمر يصرف الظن إلى الإماء والجواري، بأكثر منه في الحرائر"[3]. إن "رابعة"، على حد وصف "مصطفى ناصف"، تنطوي على "بعض المفهومات، وأهمها فيما يخيل إلينا مفهوم الحرية. رابعة التي يبحث عنها سويد في أعماق نفسه حرة. رابعة هي النفس المتجددة التي يحلم بها ولا علاقة للشاعر بحب ولا كره. قالوا إن رابعة ليست أَمَة. ورابعة عند الشراح عربية صريحة شريفة"[4]. ويبدو أن صفة السطوع التي أضفاها "سويد" على رابعة ما زالت

[1] ضيف، شوقي (٢٠٠٠)، العصر الجاهلي، الطبعة الثانية والعشرون (القاهرة: دار المعارف)، ص ٢٢٨.

[2] ناصف، مصطفى (١٩٩٢)، صوت الشاعر القديم (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ص ٢٠٨-٢٠٩.

[3] أبو حمدة، محمد علي (١٩٩٥)، في التذوق الجمالي لقصيدة سويد بن أبي كاهل اليشكري، ص ١٩.

[4] ناصف، مصطفى (١٩٩٢)، صوت الشاعر القديم، ص ٢٠٨.

تصاحبه في وصفه لها، فأسنانها البيضاء الناصعة كشعاع الشمس في اختراقه للظلمة، تصقلها بمسواك طيب نضر من شجر الأراك، أو بالأحرى: هذه الحرة تجلو ثغرًا مفلجًا أبيض لونه، لذيذًا طعمه، طيب ريقه، ولا يتغير طعمه ورائحته. ويرى "طه حسين" أن "سويدًا بن أبي كاهل" حين قال: إذا الريقُ خَدَعْ، "فهو يصور سذاجة الشاعر وبداوته، وبعده عن تكلف المترفين، فصاحبته معنية بالنظافة، لا تهمل ثغرها، فهى لايفسد فمها إذا فسدت الأفواه، ولا يتغير ريقها إذا تغير الريق"[1]؛ وكأن هذا الريق الطيب يتخلل السطوع، "فالسطوع في عالم رابعة لا يخالطه ظمأ ولا نصب. والسطوع يتحول إلى ماء قليل يبرد به بعض ما يجيش في الجسم والنفس من آثار السطوع"[2].

تلتصق صفة السطوع والنصوع بملامح رابعة، فهي بيضاء اللون جميلة الوجه ناصعة مثل شمس السماء حين تنظر في مرآتها، أو بالأحرى: قرن وجه رابعة بلون الشمس الصافية الساطعة في يوم الصحو، أي في سماء صافية، اختفى منها السحاب، فأصبحت الشمس منيرة زاهية، وذلك ما جسده قوله:

٥- تَمْـــنَحُ المِـــرْآةَ وَجْهًـــا وَاضِـــحًا مثلَ قَرْنِ الشمسِ في الصَّحْوِ ارْتَفَعْ

إن لون رابعة صافٍ يميل إلى النقاء والبياض وعيونها كحلاء جميلة لا عيب فيها، ولها ضفائر طويلة تُغللها بالمسك والعطر. ويبدو أن سويدًا بذلك الوصف ينقل إلينا صورة رابعة نقلًا كاملًا حتى نكاد نتمثلها، حيث جسدها في أبهى صورها، كما قال ابن رشيق القيرواني: "وأحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عياناً للسامع"[3].

---

[1] حسين، طه (١٩٨٩)، حديث الأربعاء، الجزء الأول، ص ١٥٨.

[2] ناصف، مصطفى (١٩٩٢)، صوت الشاعر القديم، ص ٢١١.

[3] ابن رشيق، أبو على الحسن القيرواني الأزدي (١٩٨١)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه وفصله وعلق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، الجزء الثاني، الطبعة الخامسة (لبنان، بيروت: دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة)، ص ٢٩٤.

لقد حرص "سويد" على وصف رابعة وصفًا لا يخرج عن الآداب العامة والتقاليد السائدة، فكان غزله "غزلاً عفيفاً وصف فيه شكل المرأة وجمالها، وطلاوة حديثها، ولم يغفل الجانب النفسي والخلقي عندها، فهي عفيفة، شموس، حصان السر، لا يرام حديثها، فلم ينتقص من حق المرأة في غزله، ولم يكن بعيدًا في غزله عن بيئته فغدت معانيه تعكس الحياة التي كان يعيشها(السواك، والعطر، والمرآة)"[١].

(٤)

إن فكرة السطوع، التي هي محصلة رؤيا مقدمة النسيب، تمثلت في أوضح صورها في ظهور رابعة وكأنها لؤلؤ براق مشرق مثل شعاع الشمس الساطع وسط الغيم والظلمة، فعلى نحو مماثل نجد فكرة السطوع تتمثل بقوة في وحدة الخيال والطيف التي طغت على عقل "سويد"، يقول "سويد"[٢]:

٨- هَـيَّجَ الشَّـوْقَ خَيـالٌ زَائـرٌ ... مِـن حَبيـبٍ خَفِـرٍ فِيـهِ قَـدَعْ[٣]

٩- شَـاحِطٍ جَـازَ إلـى أَرْحُلِنَـا ... عُصَـبَ الغَـابِ طُرُوقًـا لـم يُـرَعْ[٤]

١٠- آنِـس كـان إذا مـا اعْتَـادَنِي ... حَـالَ دُونَ النَّـوْمِ مِنِّـي فـامْتَنَعْ[٥]

١١- وكـذَاكَ الحُـبُّ مـا أَشْـجَعَهُ ... يَرْكَـبُ الهَـوْلَ وَيَعْصِـي مَـنْ وَزَعْ[٦]

١٢- فأَبيـتُ الليـلَ مـا أَرْقُـدُهُ ... وَبِعَيْنَـيَّ إذا نجـمٌ طَلَـعْ

---

[١] قنوت، مها (١٩٩١)، سويد بن أبي كاهل اليشكري: حياته وشعره، الطبعة الأولى (دمشق: مها قنوت)، ص ١٧٤.

[٢] اليشكري، سُويد بن أبي كاهل (١٩٧٢)، ديوان سُويد بن أبي كاهل اليشكري، ص ٢٤-٢٥، وص ٢٨-٢٩.

[٣] الخفر: الحياء. القدع: الرد والكف. والمراد أنها تكف نفسها عما يشينها.

[٤] شاحط: بعيد. جاز: سلك. العصب: الجماعات. الغاب: جمع غابة. الطروق: المجيء ليلًا. لم يرع: لم يفزع.

[٥] آنس: صفه للحبيب الخِفر ولطيفه الزائر. أي مؤانس وملاطف.

[٦] وزعه: كفه، والوازع: الكاف.

١٣- وإذا ما قلتُ لَيْلٌ قد مضَى عَطَفَ الأَوَّلُ مِنهُ فَرَجَعْ

١٤- يَسْحبُ الليلُ نُجُومًا ظُلَّعًا فَتَوَالِيها بَطِيئاتُ التَّبَعْ[١]

١٥- ويُزَجِّيها على إِبْطائِها مُغْرَبُ اللَّوْنِ إذا اللَّوْنُ انْقَشَعْ[٢]

٤٥- أَرَّقَ العَيْنَ خَيَالٌ لَمْ يَدِعْ مِن سُلَيْمَى ففؤادٍ مُنْتَزَعْ[٣]

٤٦- حلَّ أَهْلِي حيثُ لا أَطْلُبُها جَانبَ الحِصْنِ وحَلَّتْ بالفَرَعْ

٤٧- لا أُلاقِيها وقَلْبي عِندها غَيْرَ إِلمَامٍ إذا الطَّرْفُ هَجَعْ

٤٨- كالتُّوَامِيَّةِ إن بَاشَرْتَها قَرَّتِ العَيْنُ وطَابَ المُضْطَجَعْ[٤]

٤٩- بَكَرَتْ مُزْمِعةً نِيَّتُها وحَدَا الحَادِي بِها ثُمَّ انْدَفَعْ[٥]

٥٠- وكَرِيمٌ عندَها مُكْتَبَلٌ غَلِقٌ إِثْرَ القَطِين المُتَّبَعْ[٦]

يصف سويد زيارة هذا الضيف / الطيف الذي أرقه وقطع نومه، فيقول: هيج شوقي خيال زارني من حبيبٍ كثير الحياء، أو بالأحرى: أن زيارة خيال محبوبته الذي اتسم بالخفر، وحبيب خفِر بكسر الفاء: "أي تستحي وتتحشم، والخَفَر بفتح الخاء والفاء أي الحياء وحبيب خفِر بكسر الفاء أي حبيب حيّ فيه قدع، أي فيه وقار وانقباض عن الظهور والجرأءة"[٧]. هذا الخيال أحال نومه إلى يقظة وسطوع ذهني أو ما يشبه الأرق، وكأن سويد يرسم صورة معبرة لشخص ذهب شبابه يطرقه

[١] ظلعا: من الظلع والظلوع. التوال: الأواخر، واحدها تالية.

[٢] يزجيها: يسوقها برفق. المغرب: بفتح الراء الأبيض، ويعني بياض الصبح، شبهه بالمغرب من الخيل. لانقشع: ذهب.

[٣] لم يدع بكسر الدال: لم يسكن ولم يستقر، من الدعة والسكون.

[٤] كالتوامية: كالدرة المنسوبة إلى توّام، وهي قصبة عمان التي تلي الساحل.

[٥] المزمع: المجمع على الأمر الجاد فيه. نيتها: حيث تنوي. حدا: ساق.

[٦] مكتبل: موثوق، والكبل: القيد. غلف: ذاهب. القطين: الأهل والحشم.

[٧] الطيب، عبد الله (١٩٩١)، قصيدة سويد بن أبي كاهل: بسطت رابعة الحبل لنا، شرح وتعليق، ص ٢٠.

ويفزعه خيال خفر لا يظفر منه بغير الحديث فلا هو قادر على التواصل والوصال الحقيقي ولا هو بقادر على التغافل والبعد. يقول الشريف المرتضي: "قد تعجب الشعراء كثيرًا من زيارة الطيف على بعد الدار، وشحط المزار، ووعورة الطرق، واشتباه السبل، واهتدائه إلى المضاجع من غير هاد يرشده، وعاضد يعضده، وكيف قطع المسافة بلا حافر ولا خف، في أقرب مدة وأسرع زمن"[1].

ومثلما اقتحم خيال المحبوبة وطيفها نوم "سويد"، اقتحم عقل الشاعر الليل وأخرجه من ظلمته وجعله يقظًا معه لا ينام. هكذا فعل طيف رابعة فأطال ليل سويد، فإذا ما انقضى منه زمن يعقبه زمن آخر. هذا الطيف الساطع أرق "سويد" وشغل عقله وجعله ساهرًا يراعى النجوم، وكأنه يرى كل نجم أوان طلوعه: "وَبِعَيْنَيَّ إذا نجمٌ طَلَعْ"، ويترقب حركة النجوم البطيئة وكأنها لا تتحرك، وكأن الليل يجرها جرًا، "هنا ندرك أهمية الليل في القصيدة، فالليل يستمد قوته من صلته بالنهار المتمثل في عبارة السطوع. الليل لا قيمة له بمعزل عن النهار. الليل خادم النهار والسجو خادم للسطوع"[2]. أعتقد أن طيف المحبوبة الذي أرقه جعله يظن أن الليل قد كر راجعًا وقد زيد طوله وهمه عليه وكأن ساعات الليل تمضي عليه بطيئة مثلها في ذلك مثل أول الليل لا يعطف مرة أخرى وينثني راجعًا بعد ذهابه:

وإذا مـــا قلـــتُ لَيْـــلٌ قـــد مضَـــى عَطَـــــفَ الأَوَّلُ مِنـــــهُ فَرَجَـــــعْ

ولهذا نجد سويدًا في حديثه عن المحبوبة يتحدث عن سطوع الخيال وقوته، "فهى تحضر إليه لكنها لا تحضر حضورًا واقعيًا، أو حضور المشاهدة، وإنما تحضر بطريقة الذكرى والخيال الذي يلح على الشاعر، فيتحدث عن هذا الخيال كما لو أنه

[1] الشريف المرتضى، علي بن الحسين بن موسى (١٩٥٥)، طيف الخيال، تحقيق: محمد سيد كيلاني، الطبعة الأولى (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده)، ص ١٥.

[2] ناصف، مصطفى (١٩٩٢)، صوت الشاعر القديم، ص ٢١٢.

حقيقة واقعة، فقد أثار شوقه خيال الحبيبة ذات الحياء، المتمنعة، فاجتاز إليه الغابات ليلًا، لا يرده خوف، وقد آنس إلى هذا الخيال الذي ما أن يحضر حتى يُذهب النوم عنه"[١].

ومن ثم توهم "سويد" أن النجوم بهائم ترعى وقد ذهب راعيها ولن يعود، وهذا كناية عن بطئها وليلها الطويل؛ ويشبه تلك النجوم تارة أخرى بالحيوانات الظالعة التي أصابها وجع أو جرح في الرجل، فهي تظلع وتتأخر من أجل ذلك، والنجوم المتأخرة بطيئة جدًا في إلحاقها بالنجوم المتقدمة. أو بعبارة أدق: "النجوم ظالعة تمشي هينة لينة مستجيبة حتى يأخذ الليل نصيبه من الحياة والنمو. فإن تكاليف السطوع شاقة، ومن حق العقل أن يتمهل وألا يسرع إلى إنكار السطوع والجدال فيه. فالنجوم هي صورة من نفس الإنسان التي تبدو أحياناً صغيرة هشة بجانب هذا السطوع، فهى محتاجة إلى أن تسير على مهل"[٢].

يصرح "سويد" بأن هذه النجوم البطيئات خلفها سائق يقودها ببطء، هذا السائق مُغْرب اللون أي فيه بياض وحمرة يعني الفجر، حتى يحين للون الليل الأسود أن ينقشع أي يأخذ في الزوال ثم يزول. انقشع الليل أي مضى وذهب، "والشاعر عنى بالْمُغْرَبِ اللون الصبح، لأن الفجر الكاذب يلوح بحمرته عموديًا كذنب منتفش، ثم يجيء الفجر الصادق، وهو بياض أفقي ثم يجيء الشفق الأحمر، وتتكشف الدنيا وينقشع لون الليل بسواده"[٣]. ويحل محله صبح متلألأ يجاهد في دفع هذا الليل بقوة. هكذا كان حال "سويد" مع طيف محبوبته، لا أحد أكثر منه

[١] قنوت، مها (١٩٩١)، سويد بن أبي كاهل اليشكري: حياته وشعره، ص ١٦٨-١٦٩.

[٢] ناصف، مصطفى (١٩٩٢)، صوت الشاعر القديم، ص ٢١٢.

[٣] الطيب، عبد الله (١٩٩١)، قصيدة سويد بن أبي كاهل: بسطت رابعة الحبل لنا، شرح وتعليق، ص ٢٤.

شجاعةً، يركب الأهوال والأخطار، يعصي كل من يحاول نصحه، فنراه يرقد الليل، ويراقب النجوم ما يطلع منها وما يغيب حتى ليظن أنه من فرط همه وشوقه أن الليل لا يغيب بل هو متصل متسلط عليه بخيال محبوبته وطيفها.

يتبدي الطيف وخيال المحبوبة في اليتيمة مرة أخرى من البيت الخامس والأربعين إلى البيت الخمسين، ويشير "سويد" إلى أن هذا الطيف وخيال المحبوبة، الذي أَلمَّ بزيارته، أرَّق عينيه وهيج شوقه، لكن هذا الطيف لم يكن لرابعة وإنما هو لسُليمى، هذا الطيف انتزع قلبه من موضعه انتزاعًا قويًا من فرط شوقه إليها، فطيف الخيال يؤرق "سويد بن أبي كاهل" بعد أن "طوح الفراق بينه وبين من يحب فأصبح الخيال الفرصة الوحيدة المتاحة للقاء الأرواح، وهذا الإلحاح على أزمة الفراق يبدو واضحًا من المسافة التي يصطنعها الشاعر (حل أهلي) و (حلت بالفرع) فلم يعد ثمة سبيل إلى اللقاء إلا بإلمامه الطيف التي أصبحت هي العزاء الوحيد"[1]؛ ومن ثم يصرح سويد بأن سُليمى تسكن بدار بعيدة عن داره، ولبعدها هذا فهو لا يتمكن من رؤيتها مع إن قلبه متعلق بها ومشغول عليها، وهو أسير لحبها، وإنما يلقاها إذا نامت عينه فيأتيه طيفها ويمر سريعًا، وكأن لقائي بها في عجالة سريعة في المنام حين يهجع الطرف؛ ثم يصف ما رآه من جمال بشرتها الناصعة الطيف في المنام فهي كالتؤامية "أي بشرتها ناعمة

[1] محمد، سامي جاسم (٢٠١٣)، طيف الخيال في الشعر الجاهلي: بواعثه وتجلياته، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد ٢٠، العدد ٧ (العراق، تكريت: جامعة تكريت للعلوم الإنسانية)، ص ١٥٩-١٦٠.

صافية كالدرة التؤامية التي يجيء بها الغواصون من الخليج في الساحل والذي يقال له تؤام وهو ساحل عُمان والبحرين حيث يُغاص على اللؤلؤ"[١].

هذه المرأة من يظفر بها تقر عينه ويسر بها سرورًا كبيرًا ويعجبه مضجعه بقربها، ولكن ما يحزن قلبه أنها قد بكرت من أول الصبح، وعزمت ووجهت النية على الرحيل والسفر، وقد حدا الحادي بإبله للرحيل، فاندفعت بهودجها وجِمالها مبتعدة إلى أن اختفت عن عينيه. وقد ذكر "يحيي الجبوري" في كتابه: "الشعر الجاهلي: خصائصه وفنونه" أن: "هناك طائفة من الشعراء لم تصرف همها إلى محاسن المرأة وأعضائها، ولم تتغن بفضائلها وأخلاقها، ولكن راحت تصور ما يلقاه العاشق المحبُّ من وشوق ووجد وهيام، وما يعانيه من أَلم الفراق ولوعة البعاد، وكيف يسهر الليل ويرقب النجوم يتغنى بخيالها، ويمني النفس بزورة من طيفها، وهو سهر متأمل في طول الليل وثبات النجوم، أرق مضطرب لما يلقاه عن حب عنيف يكاد يخبل العقل. وتقف قصيدة سويد بن أبي كاهل في طليعة هذا الضرب من الغزل الذي يصور ما يعانيه الشاعر من وجد واشتياق"[٢].

(٥)

مازالت فكرة السطوع التي تجلت عند انتهاء الليل وانبثاق ضوء الفجر الذي صاحب طيف المحبوبة وخيالها تتجسد في الجزء الثالث من مقدمة النسيب أو هي نهاية مقدمة النسيب، يقول "سويد"[٣]:

---

[١] الطيب، عبد الله (١٩٩١)، قصيدة سويد بن أبي كاهل: بسطت رابعة الحبل لنا، شرح وتعليق، ص ٤٠.

[٢] الجبوري، يحيى (١٩٨٦)، الشعر الجاهلي: خصائصه وفنونه، الطبعة الخامسة (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص ٢٨٩-٢٩٠.

[٣] اليشكري، سُويد بن أبي كاهل (١٩٧٢)، ديوان سُويد بن أبي كاهل اليشكري، ص ٢٥.

١٦- فَـدَعَانِي حُـبُّ سَـلْمَى بَعْـدَ مـا ذَهَـــبَ الجِـــدَّةُ مِنِّـــي والرَّيَـــعْ[١]

١٧- خَبَّلَتْنِـــي ثُـــمَّ لمَّـــا تُشْـــفِنِي فَفُـــؤَادِي كـــلَّ أَوْبٍ مـــا اجتَمَـــعْ[٢]

١٨- ودَعَتْنِـــي بِرُقَاهـــا إنَّهـــا تُنـــزِلُ الأَعْصَـــمَ مِـــن رَأْسِ اليَفَـــعْ[٣]

١٩- تُسْـمِعُ الحُـدَّاثَ قـولًا حَسَـنًا لـــو أَرادُوا غَيْـــرَهُ لـــم يُسْـــتَمَعْ[٤]

نلمح أن سويدًا قد سمى محبوبته سلمى بعد أن كان قد سماها رابعة في مفتتح اليتيمة، "ليبين لنا الشاعر هنا أنه قد تقدمت به السن، وأن حبه لرابعة وهي سلمى كان في زمان الشباب، وحينئذ بسطت مودتها ووصلها له، وهو يتذكر جميع ذلك ولا ينساه ويشتاق إلى زمانه"[٥]؛ أو على حد تعبير "مصطفى ناصف": "هاهنا يدرك الشاعر مرة أخرى أن النصوع معرض لما لا ينبغي أن يتعرض له. فالمرء معرض لذهاب جدة الشباب وريعه. ولكن السطوع شاب دائمًا، جديد دائمًا. وماذا يعنينا إذا ذهب عنا شبابنا وزالت قوتنا مادام عالم السطوع لا يخبو ولا يغيب. إننا نستطيع أن نحتفظ دائمًا بقدر من شباب إذا عرفنا أننا نعيش في حمى هذا السطوع العظيم"[٦]. فـ "سويد" قد هام بمحبوبته حبًا وإعجابًا، فكأن بعقله فسادًا من حبها لم تساعده على الشفاء منه.

---

[١] الجدة: أراد بها جدة الشباب. الريع: بسكون الياء أول الشباب.

[٢] خبلتني: من قولهم خبله وخبله بالتشديد والتخفيف، واختبله: إذا فسد عقله. كل أوب: كل وجه. ما اجتمع: متفرق لم يجتمع.

[٣] الرقى: جمع رقية. الأعصم: الوعل الذي في يديه بياض. اليفع: المرتفع كاليفاع.

[٤] الحداث: الذين يحدثونها وتحدثهم. لم يستمع: المعنى لو التمسوا منها سوى الحديث لم ينالوه، يصف عفتها.

[٥] الطيب، عبد الله (١٩٩١)، قصيدة سويد بن أبي كاهل: بسطت رابعة الحبل لنا، شرح وتعليق، ص ٢٤.

[٦] ناصف، مصطفى (١٩٩٢)، صوت الشاعر القديم، ص ٢١٣.

يصرح سويد بأن المحبوبة شغلته حبًا وعشقًا، وأنها اصطادت فؤاده فهو ذاهب خلفها في كل اتجاه، متفرق بالحنين إليها في كل أوب ومكان؛ ويذكر إن من الأسباب التي اصطادت فؤاده بها هو حديثها الساحر من فمها المتلألأ الساطع، ومن فرط حبه لسلمي شبه نفسه بالوعل البري الشرس القوي، وكأن الصبح والسطوع في عقل "سويد" ارتبط بالشباب، وربما شيخوخة "سويد"، وهو الذي توفي عام (٦٠هـ)، جعلته يلجأ إلى السطوع كتعويذة وحماية له من ظلم الزمن؛ ومن ثم جذبته محبوبته بحديثها العذب المؤثر، كما تؤثر الرقية في المسحور والملدوغ، أو أن حديثها العذب الجاذب والمؤثر الذي يستطيع أن يصطاد الوعل به فينزل لاستماعه بفرح وحب من أعالي الجبل، وهذا ما وضحه قوله: تُنزِلُ الأَعْصَمَ مِن رَأْسِ اليَفَعْ.

كان "سويد" يعي فكرة السحر والرقية وعيًا تامًا، ولهذا لجأ إلى السطوع، أو بالأحرى: "أراد سويد أن يدعم هذا السطوع في عقله ففرق بينه وبين أفاعيل السحر وما يصيب العقل حتى يحتاج إلى ما يشبه الرقى"[١]. استمر سويد في وصف حديث سلمي العذب فقال: إنها تُسمع المتحدثين إليها حديثها الحسن النقي، ولو طلبوا غيره من غيرها من الناس لم ينالوه، فكأنها وحدها تملك هذا الحديث المؤثر النقي الذي تصطاد به القلوب والعقول. لقد جسد هذا المقطع الذي يقع في نهاية النسيب السطوع والبياض.

(٦)

ولقد كان حب "سويد" لسلمي الصلة بين النسيب والدخول إلى وصف السير في الصحراء والمفاوز والصعوبات، يقول "سويد"[٢]:

[١] ناصف، مصطفى (١٩٩٢)، صوت الشاعر القديم ، ص ٢١٣.

[٢] اليشكري، سُويد بن أبي كاهل (١٩٧٢)، ديوان سُويد بن أبي كاهل اليشكري، ص ٢٦-٢٧.

٢٠- كَـمْ قَطَعْنَـا دُونَ سَـلْمَى مَهْمَهًـا نَـــازِحَ الغَـــوْرِ إذا الآلُ لَمَـــعْ[١]

٢١- فـي حـرُور يُنْضَـجُ اللَّحْـمُ بِهـا يَأْخُـــذُ السَّـــائِرَ فيهـــا كالصَّـــقَعْ[٢]

٢٢- وَتَخطَّيْـتُ إليهـا مـن عِـدى بِزَمَـــاعِ الأَمْـــرِ والهَـــمِّ الكَنِـــعْ[٣]

٢٣- وَفَـــلاةٍ وَاضِـــحٍ أَقْرابُهَـــا بَالِيـــاتَ مثـــلُ مَرْفَـــتِّ القَـــزَعْ[٤]

٢٤- يَسْـبَحُ الآلُ علـى أَعْلامِهـا وعَلَـــى البِيـــدِ إذا اليـــومُ مَتَـــعْ[٥]

٢٥- فَرَكِبْنَاهـــا عَلَـــى مَجْهُولِهـــا بِصِـــلَابِ الأَرْضِ فـــيهِنَّ شَـــجَعْ[٦]

٢٦- كالمَغَـــالِي عارِفـــاتٍ لِلسُّـــرَى مُسْـــنَفاتٍ لَـــمْ تُوَشَّـــمْ بِالنِّسَـــعْ[٧]

٢٧- فَتَرَاهـــا عُصُـــفاً مُنْعَلَـــةً بِنِعَـــالِ القَـــيْنِ يَكْفِيهـــا الوَقَـــعْ[٨]

٢٨- يَـــدَّرِعْنَ الليـــلَ يَهْـــوِينَ بِنَـــا كَهَـــوِيِّ الْكَـــدْرِ صَـــبَّحْنَ الشَّـــرَعْ[٩]

٢٩- فَتَنَـــاوَلْنَ غِشاشًـــا مَـــنْهَلًا ثُـــمَّ وَجَّهْـــنَ لِأَرْضٍ تُنْتَجَـــعْ[١٠]

---

[١] المهمة: القفر. النازح: البعيد. الآل: السراب.

[٢] الحرور:ريح حارة تكون بالنهار، والسموم تكون بالليل والنهار جميعًا. الصقع: حرارة تصيب الرأس.

[٣] العدى: بالضم والكسر:الأعداء. زماع الأمر: الجد فيه. الكنع: بفتح وكسر اللازم الذي لا يفارق.

[٤] الأقراب: الخواصر. المرفت: المتكسر المتحطم. القزع: جمع قزعة وهي بقايا تبقي من الشعر في الرأس.

[٥] الأعلام: الجبال. البيد، جمع بيداء وهى القفر. متع اليوم: ارتفعت شمسه.

[٦] أي تعسفنا: صرنا فيها على جهل بمسالكها وأعلامها. بصلاب الأرض: بخيل صلاب الحوافر. وأرض الفرس: حوافرها. الشجع: جنون من النشاط.

[٧] المغالي: السهام التي يغلى أي يباعد بها في الرمي. العارفات: الصبورات على السير.السرى: سير الليل. المسنفات: التي شد عليها السناف، وهو خيط يشد من اللبب إلى الحزام.

[٨] العصف: السريعة في السير، من عصفت الريح، وواحدتها عصوف. الوقع : بفتحتيين، الحفا من المشي على الحجارة.

[٩] يدرعن الليل: يدخلن فيه كما تلبس الدرع. الكدر: القطا الكدري، وهو الذي في لونه غبرة. صبحن: وافين في الصبح. الشرع: الماء والشرب جميعًا.

[١٠] غشاشًا: قليلًا،أي بمعني على عجل. المنهل: المشرب. وجهن: توجهن. تنتجع: تقصد للكلأ.

لقد سيطر السطوع على كل شيء حتى إنه تضافر مع القوة واتحدا سويًا في وصف الفلاة والخيل والقطا. ينتقل سويد من خلال حديثه عن حديث سلمي العذب إلى وصف رحلته إليها، فيقول: كم قطعنا من أجل الوصول إلى سلمى مسافات ومسافات وصحراء تلو الأخرى، يجتاز فيها القفار الموحشة ذات الرياح الشديدة الحارة التي ينضج فيها اللحم، وتصيب الرأس بالدوران من شدة قيظها، وكأنه يؤكد كم تخطى من الصعاب والمشاق من أجل الوصول إلى سلمى، وهكذا تتحدد غاية الرحلة، وتتعمق مشقات الطريق على "سويد" فيقرر خوض الصعاب، حيث تجاوز أعداءه المتربصين له في تلك القفار الموحشة، والطرق الصعبة في شجاعة وقوة وعزم وتصميم:

٢٢- وَتَخطَّيْــتُ إليهــا مــن عِــدى بِزَمَــــاعِ الأَمْــــرِ والهَــــمِّ الكَنِـــعْ

ويمضي "سويد" واصفًا رحلته إليها في هذه القفار الموحشة، التي رغم وحشيتها فإنها واضحة النواحي لامعة الجوانب بضوء الشمس الساطع، وقد تفرقت أعلامها (جبالها) كما يتفرق الشعر في الرأس الأصلع، على حد وصفه، أو كما يتفرق الغيم الضئيل في السماء اللامعة. إن المودة التي كانت من قبل هي الآن دافعًا قويًا لتحدي الصعوبات والمشاق التي يتحملها "سويد"، وكأنه لأجلها، أيضًا، يقطع القفار البعيدة التي يلمع فيها السراب ويسطع؛ ويؤكد أن هذه الفلاة يسيطر عليها السراب بقوة على تلالها ومرتفعاتها وعلى جميع أنحائها.

ويستمر "سويد" في وصف قوته وشجاعته فيقول: ركبنا هذه القفار الواضحة، التي تبدو نواحيها كالسحاب المتشتت، وكأنه ثياب قِطَعُها بالية متفرقة، ركبناها بقوة وشجاعة على الرغم من أهوالها ومخاوفها، "ولعل هاتين الصورتين (صورة السراب والرياح الحارة) هما أهم ما تنعكس آثاره على الإنسان في الصحراء العربية التي يقطعها الإنسان الجاهلي في رحلاته وأسفاره على راحلةٍ أو فرسٍ كانت تضرب به في عمق هذه الصحراء المقفرة الغامضة. ويمعن الشاعر في تصوير هذه الفلاة التي

يتغشاها فيسبغ عليها أكثر من صورة، تظهر مكوناتها، وهو يستند إلى التشبية، المكون الرئيسي لها حينما يجعل الأقراب- التي هي الجوانب، والأطراف بمنزلة الخواصر من الناس، ثم يشبه الفلاة، وقد تفرقت علاماتها بقطع الغيم الضئيل في السماء، أو بالشعر القليل المتفرق في الرأس الصلعاء"[١].

لفد برع "سويد" في رسم صورة قوية لفرسه التي يقطع بها هذه الفلاة، فهي من الخيل الصلاب، فرس قوية سريعة ترجم المرتفعات بأخفافها الصلاب فتشق ما فيها من حجارة شقًا، وهذه الخيل كالمغالي، أي كالسهام التي ترمى على بعد في انطلاقها وسرعة نشاطها، وهي خيل عارفات بالسرى، أي مشهورة بالسير ليلًا، مقدمات مدفوعات إلى الأمام، لم تكن عليها علامات سيور الضرب مثل الخيل الضعيفة التي تترك على أجسامها علامات أثر كأنها وشمٌ ونقشٌ على جلودها، أي يصف صلاب الخيل بأنها ذكيةٌ لم توشم بالنسع من فرط قوتها ولم تضرب بالسيور. لقد وصف سويد هذه الخيل بأنها عُصُفًا أي أنها سريعات عاصفات تطير مثل الريح، ولحوافرها الشديدة القوة نعال من حديد صنعها القين (عبد يصنع حوافر هذه الخيل بمهارة)؛ وهذه الحوافر الحديدية تحمي هذه الخيل وهي تضرب الحجارة الصلبة، وتفتتها على أرض صلبة بقوة وشجاعة، ولا تصاب ولا تجرح.

وهنا تتبدي العلاقة الوطيدة بين القوة والسطوع، وكأنهما وجهان لعملة واحدة، "فكيف يدرك الإنسان السطوع دون أن يدق الأرض دقًا عنيفًا يريدها أن تتكلم وألا تعيا بالصمت والتجاهل والعناد؟"[٢]. إن هذه الخيل، التي تضاهي الريح، في سرعتها وقوتها قد" اندفعت في الليل وكستها ظلمته وسواده فكأنه درع عليها، وهذه الخيل يهوين بنا هُويًا أي يندفعن بنا مسرعات"[٣]. وهذه الخيل المسرعات كأنها القطا الكدر الألوان، التي جمعت بين البياض والحمرة، والتي جاءت إلى مورد الماء، وكانت مسرعة تهوي إلى

[١] حمدان، فتحي عبد المحسن محمد (٢٠١٠)، قراءة في عينية سويد بن أبي كاهل، ص ٦٢.

[٢] ناصف، مصطفى (١٩٩٢)، صوت الشاعر القديم، ص ٢١٣.

[٣] الطيب، عبد الله (١٩٩١)، قصيدة سويد بن أبي كاهل: بسطت رابعة الحبل لنا، شرح وتعليق، ص ٣٠.

الشرع وهو المكان الذي ترد فيه الماء وتتجمع، "والربط بين الفرس والقطا يوحي بمعان عدة منها: السرعة والخفة، فإذا كانت القطاة قد اشتد طيرانها عند قصدها شرب الماء، فإن الفرس قد أسرعت هي الأخرى لتنهي رحلتها، فيبلغ الشاعر مقصده، فترد الماء، وتنتجع الكلأ فبنهاية رحلة الشاعر أنتهت رحلة فرسه معه حينما وردت الماء وانتجعت الكلأ، كذلك انتهت رحلة القطا حين وردت الماء الذي تبحث عنه، فنهاية الرحلة سعيدة لكل أطرافها"[١]. ومثلما تضافرت القوة مع السطوع في وصف الفلاة والرحلة والخيل الصلاب، تضافرت أيضًا بالقوة والفعل مع طائر القطا، حيث تأتي هذه القطا عند مورد الماء وتهبط بقوة في وقت انشقاق الضوء المصاحب لوقت الفجر، وإتمام سطوع الضوء واكتماله لطلوع النهار والصبح؛ وكأن هذه القطا القوية تستمد قوتها من سطوع الضوء وتلألأ الصبح والنهار، أو بعبارة أخرى: "مثل السطوع كمثل هوى القطا وافت الماء والشراب جميعًا"[٢].

اعتقد أن فكرة السطوع والقوة قد تملكت عقل سويد في رحلته إلى محبوبته، ومن ثم "كيف نستطيع أن نفهم جنون الخيل التي مسها هذا السطوع فأخرجها من أطوارها؟ وكيف نستطيع أن نفهم الأطياف المؤنسة التي انبعثت من السطوع أيضًا؟ وكيف نفهم السراب بمعزل عن وطأة التلقي للسطوع؟ الليل يتقدم ويتقهقر مجفلًا من السطوع، والخيل أصابها حميا السطوع، والسراب مازال يذكرنا بالفرق بين الوضوح والخفاء، بين اللباب والقشور، بين الحقائق والأباطيل"[٣].

(٧)

ويستمر "سويد" في استخدام القوة والسطوع ليصف رحلته على ناقته القوية وثوره المنتصر على الصائد وكلابه الضارية بقوة ومهارة فائقة في اليتيمة، يقول "سويد"[٤]:

---

[١] حمدان، فتحي عبد المحسن محمد (٢٠١٠)، قراءة في عينية سويد بن أبي كاهل، ص ٦٤.

[٢] ناصف، مصطفى (١٩٩٢)، صوت الشاعر القديم، ص ٢١٣.

[٣] السابق، ص ٢١٣.

[٤] اليشكري، سُويد بن أبي كاهل (١٩٧٢)، ديوان سُويد بن أبي كاهل اليشكري، ص ٢٩-٣٠.

٥١- فَكَـــأَنِّي إِذْ جَـــرَى الالُ ضُـــحًى ... فَـــوقَ ذَيَّـــالٍ بِخَدَّيْـــهِ سَـــفَعْ[١]

٥٢- كُـــفَّ خَـــدَّاهُ علـــى دِيباجَـــةٍ ... وعلـــى المَتْنَـــينِ لَـــوْنٌ قَـــد سَـــطَعْ[٢]

٥٣- يَبْسُـــطُ المَشْـــيَ إذا هَيَّجْتَـــهُ ... مِثْـلَ مـا يَبْسُـطُ فـي الخَطْـوِ الـذَّرِعْ[٣]

٥٤- رَاعَـــهُ مِـــن طَيِّـــئٍ ذُو أَسْـــهُمٍ ... وضِـــرَاءٌ كُـــنَّ يُبْلِـــينَ الشِّـــرَعْ[٤]

٥٥- فَـــرَآهُنَّ ولمَّـــا يَسْـــتَبِنْ ... وكِـــلاَبُ الصَّـــيْدِ فـــيهنَّ جَشَـــعْ[٥]

٥٦- ثُـــمَّ وَلَّـــى وَجَنَابَـــانَ لـــهُ ... مِـــن غُبَـــارٍ أَكْـــدَرِيٍّ واتَّـــدَعْ[٦]

٥٧- فَتَـــرَاهُنَّ علَـــى مُهْلَتِـــهِ ... يخْتَلِـــينَ الأَرْضَ والشَّـــاةُ يلَـــعْ[٧]

٥٨- دَانيَـــاتٍ مـــا تَلَبَّسْـــنَ بـــه ... وَاثِقَـــاتٍ بِـــدِمَاءٍ إِنْ رَجَـــعْ[٨]

٥٩- يُرْهِـــبُ الشَّـــدَّ إذا أَرْهَقْتَـــهُ ... وإذا بَـــرَّزَ مِـــنهنَّ رَبَـــعْ[٩]

٦٠- ســـاكِنُ القَفْـــرِ أَخُـــو دَوِّيَّـــةٍ ... فـــإذا مـــاآنَسَ الصَّـــوْتَ امَّصَـــعْ[١٠]

---

[١] الذيال: الثور الطويل الذنب. السفع: جمع سفعة، وهي سواد يضرب إلى حمرة، وبفتح السين: مصدر. شبه ناقته بالثور الوحشي.

[٢] كف: ضم. المتنان: مكتنفا الصلب. سطع: علا.

[٣] الدرع: بفتحتين الصغير من ولد البقرة.

[٤] ذو أسهم: أراد به الصائد. الضراء: الكلاب التي ضربت للصيد، الواحد ضروة بكسر الضاد. الشرع بكسر ففتح: الأوتار، واحدتها شرعة بكسر فسكون.

[٥] أي: رأى الثور الكلاب ولم يستبنهن. الجشع: أسوء الحرص.

[٦] الجنابان: الجانبان. أكدري: فيه كدرة. اتدع: لم يجتهد في عدوه، لثقته بأنه سيفوتهن.

[٧] يختلين: يقطعن. يلع: بكذب في عدوه ولا يحد، من قولهم ولع يلع إذا كذب.

[٨] ماتلبسن به: لم يخالطنه، بل قارنه.

[٩] الشد: السير السريع. يرهبه: من الارهاب. "يهذب الشد" و"يلهب الشد" من الإهذاب والإلهاب، وهما الإسراع في العدو. أرهقته: أعجلنه. برز منهن: بعد. ربع: حبس وكف عن العدو.

[١٠] الدوية: الفلاة البعيدة الأطراف. آنس: أحس وسمع. امصع: ذهب في الأرض.

يصف "سويد" رحلته على ناقته فيقول فكأنني مندفعًا فوق ناقتي، وقد تغلغل السراب في الضحى، وقد اشتد حر الظهيرة، وارتفع في الاشتداد، وسطعت الشمس وتلألأت؛ لكن هذه الناقة من فرط سرعتها كأنها ثور وحشي؛ و"سويد" "وصف ناقته، واتخذ وصفها سبيلًا إلى وصف الصيد وكلابه، وسهام الرماة، وما يكون بين الثور الذي يشبه به ناقته وبين الكلاب من طراد، فيه فزع ومكر، وفيه كيد وإقدام، وفيه ثقة بالنفس، وإشفاق من الخصم"[1]. هذا الثور طويل الذيل (ذيال)، وهو ثور لونه أبيض ناصع البياض (لون قد سطع)، وله وجه سفع أي فيه سواد يميل إلى الحمرة. ولقد برع "سويد" في تشبيه خدًا هذا الثور بالديباج، وهو نوع من الثياب الفاخر الموشي (خداه على ديباجةٍ)؛ وتتبدي ظاهرة السطوع في وصفه لثوره بقوله: وعلى المتنين أي على جانبي ظهر الثور لون قد سطع أي قد بدا ساطعًا في بياضه، ينعكس عليه ضوء الشمس؛ كما أن هذا الثور يتميز بأنه يبسط المشي، أي يسرع في خطواته، وتشتد سرعته إذا هيجته، ومن فرط سرعة عدو هذا الثور واتساع خطواته شبهه بالذَّرع، وهو ولد البقرة الصغيرة. ولابد من ملاحظة تعدد استخدام لفظة: "يبسط"، فقد استخدمه أول الأمر في مفتتح اليتيمة يصف به محبوبته رابعة، ثم في الفخر بقومه بني بكر: بُسُط الأيدي"، وأنهم أهل العطاء والبسط والجود، ثم استخدمه للثور: "يبسط المشي إذا هيجته"، وكأن فكرة البسط جزء من السطوع والقوة والفخر.

ويقدر لهذا الثور النشيط أن يفزعه صائد من بني طيئ ومعه كلابه الضارية الضراء الماهرة في الصيد؛ ويستمر "سويد" في وصف هذا الصياد القوي ومعه كلابه الضارية المدربة على الصيد ومعه، أيضًا، قوسه وأسهمه القوية، ويصف سرعة انطلاق هذه الكلاب وراء الثور، حيث تبلي سهام هذا الصياد المحنك أحسن البلاء،

[1] حسين، طه (١٩٨٩)، حديث الأربعاء، الجزء الأول، ص ١٥٧.

فتطير هذه الكلاب مثل طيران هذه السهام، وكأن الكلاب سهام يبارين السهام نفسها في سرعتها وقوتها، ثم يصف منظر الثور عندما رأى الكلاب الضاريات فلم يستبنهن بسبب الغبار الكثيف الذي سببه جريهن. وبعدما أدرك الثور هذا الصياد بكلابه وسهامه عدا عدوًا سريعًا، وأخذ يعدو وحوله جنابان من الغبار، ووصف هذا الغبار بأنه غبار أكدري اللون، أي به غبار شديد من فرط سرعته، ومع ذلك انطلقت الكلاب خلفه انطلاقًا سريعًا، يختلين الأرض بأظافرهن، أي يقتلعن ما عليها من نباتات، والثور يبصر المشهد بالتوقف عن العدو، فهو "غير صادق الجهد في عدوه"[1]؛ ولقد جاهدت هذه الكلاب في فعل التربص بهذا الثور المسكين، واثقات من اقتناصه وقتله وجرحه حتى تسيل الدماء منه: "وَاثِقَاتٍ بِدِمَاءٍ إِنْ رَجَعْ".

ويعاود "سويد" ليصف الثور بأنه ثور ملازم القفار: "سَاكِنُ القَفْرِ أَخُو دَوِّيَّةٍ"، تلك القفار والصحراء الواسعة التي يُسمع فيها صوت الجن ليلًا، وذلك لخلوها من البشر، وتلاعب أصوات الرياح فيها، لشدة وسع هذه الصحاري. هذا الثور ذو سمع حاد وبصيرة مرهفة، فإذا شعر بصوتٍ أو حركة في هذه القفار من مثل حركة الصياد وكلابه وصوت سهامه التي يُطلقها، فإنه يمصعُ أي ينطلق في الجري انطلاقًا مسرعًا. يبدو أن الثور نجح في الانفلات من شباك الموت التي كادت تقتلعه من جذوره.

(٨)

ومثلما نجح الثور في الانفلات من براثن الصياد وكلابه، نجح "سويد" في استخدام القوة في وصف قومه والفخر بصفاتهم التي تكاد تكون صفات وفضائل اختصت بقومه فقط، يقول "سويد"[2]:

---

[1] الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٢٦)، المفضليات، ضبط وشرح: حسن السندوبي، الطبعة الأولى (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى)، ص ٩١.

[2] اليشكري، سُويد بن أبي كاهل (١٩٧٢)، ديوان سُويد بن أبي كاهل اليشكري، ص ٢٧-٢٨.

٣٠- مِـنْ بَنِـي بَكْـرٍ بِهـا مَمْلَكَـةٌ مَنْظَـرٌ فِـيهِمْ وفـيهِمْ مُسْـتَمَعْ[١]

٣١- بُسُـطُ الأَيْـدِي إذا مـا سُـئِلُوا نُفُـعُ النَّائِـلِ إنْ شـيءٌ نَفَـعْ[٢]

٣٢- مِـنْ أُنـاسٍ لِـيْسَ مِـنْ أَخْلاَقِهِـمْ عَاجِـلُ الفُحْـشِ ولاَ سُـوءُ الجَـزَعْ[٣]

٣٣- عُـرُفٌ لِلحَـقِّ مـا نَعْيـا بِـه عنـدَ مُـرِّ الأمـرِ مـا فِينـا خَـرَعْ[٤]

٣٤- وإذا هَبَّـتْ شَـمَالًا أَطْعَمُـوا فِـي قُـدُورٍ مُشْـبَعَاتٍ لـم تُجَـعْ[٥]

٣٥- وجِفـانٍ كـالجَوَابِي مُلِئَـتْ مِـن سَـمِيناتِ الـذُّرَى فيهـا تَـرَعْ[٦]

٣٦- لا يَخـافُ الغَـدْرَ مـن جـاوَرَهم أَبـدًا مـنهُمْ ولا يَخْشَـى الطَّبَـعْ[٧]

٣٧- ومَسَـاميحُ بمـا ضُـنَّ بِـه حاسِـرُوا الأَنْفُسِ عـن سـوءِ الطَّمَـعْ[٨]

٣٨- حَسَـنُوا الأَوْجُـهِ بـيضٌ سـادةٌ ومَـرَاجِيحُ إذا جَـدَّ الفَـزَعْ[٩]

٣٩- وُزُنُ الأَحْـلاَمِ إنْ هُـمْ وَازَنُـوا صـادِقُو البـأْسِ إذا البـأْسُ نَصَـعْ[١٠]

---

[١] مستمع: أي حيث يرون ويسمعون ما يشتهون.

[٢] بُسُط جمع بسيط، والبسيط هو المسامح الكريم المتهلهل.

[٣] لم يرد أنهم لا يعجلون بالفحش، ولا يجزعون لمصيبة.

[٤] الخرع: الضعف واللين.

[٥] هبت شمالًا: هبت الريح شمالًا. المشبعات :المملوءات.

[٦] الجوابي: الحياض الكبار التي يجبي فيها الماء، الواحدة جابية. الذرى: جمع ذروة، وذروة كل شيء أعلاه، أراد الأسنمة. الترع: الامتلاء.

[٧] الطبع: ما يعابون به، وأصل الطبع تلطخ العرض.

[٨] مساميح: أجواد. حاسروا الأنفس: كاشفوها، أي مبعدوها عن الطمع.

[٩] مرجيح: راجحوا القلوب، ثابتون لا يستخفهم الجزع، ليسوا بجبناء.

[١٠] نصع: ظهر وأنار.

٤٠- ولُيُـــوثٌ تُتَّقَـــى عُرَّتُهَـــا سَـــاكِنُوا الـــرِّيحِ إذا طَـــارَ القَـــزَع[١]

٤١- فَـــبهِمْ يُنْكَـــى عَـــدُوٌّ وبِهِـــمْ يُـــرأَبُ الشَّـــعْبُ إذا الشَّـــعْبُ انْصَـــدَعْ[٢]

٤٢- عـــادةٌ كانـــت لهـــم مَعْلُومَـــةٌ فِـــي قَـــدِيمِ الـــدَّهْرِ لَيْسَـــتْ بالبِـــدَعْ

٤٣- وإذا مـــا حُمِّلُـــوا لـــم يَظْلَعُـــوا وإذا حَمَّلْـــتَ ذا الشِّـــفِّ ظَلَـــعْ[٣]

٤٤- صـــالِحُوا أَكْفَـــائِهِمْ خُلَّانُهُـــمْ وسَـــرَاةُ الأَصـــلِ والنـــاسُ شِـــيَعْ[٤]

يفتخر سويد بأن قومه أهل الجود، فهم كرام يبسطون اليد بالكرم حين يسئلون، وعطاؤهم كثير يعطونه بنفس راضية سخية، ولذلك يكون عطاؤهم نافعًا؛ ويتكرر استخدام دال "البسط" التي وصف بها رابعة في مفتتح اليتيمة، ليعاود استخدامها في وصف قومه بالجود الفياض والكرم المنهمر في قوله: "بُسُطُ الأَيْدِي إذا ما سُئِلُوا"، ومن هنا لا نجد خلافًا لما فيه البسط عند رابعة والبسط عند قومه فهما عالمان متحدان يكمل بعضه البعض. ويصف قومه بأنهم أصحاب خلق حسن، وأنهم أهل فضل وسماحة في الفعل والقول، فليس في طبعهم الإسراع إلى القول الفاحش، أو بعبارة أخرى: إنهم لا يسرعون إلى الفحش، ولا يعجلون إليه، كما أنهم ذو قدرة وصبر إذا أصابتهم مصيبة.

ويستطرد في الفخر بصفات قومه فهم أهل عدالة وصدق وجد يعرفون ما عليهم من واجبات وحقوق تجاه الآخرين؛ ويفصل الوصف في ذكر كرم قومه: بأنهم

---

[١] العرة: الأذى. ساكنوا الريح: لايخفون، ولا يستعجلون. القزع: الخفاف الذين لا ركانة لهم. شبههم بفزع السحاب.

[٢] ينكى: يقال نكيت العدو، ونكيت فيه نكاية: إذا أصبت منهم فأكثرت الجراح والقتل وهنوا لذلك. الشعب: الصدع والتفرق، وهو من الأضداد، ويكون أيضًا بمعنى الالتئام. رأبه: أصلحه.

[٣] الظلع في الأبل بمنزلة الغمز في الخيل، وهما عرج في مشيهما. الشف ههنا: الفضل والزيادة، وهو ضد يقال أيضًا للنقصان.

[٤] لا يخالون ولا يصادقون إلا الصالحين من أكفائهم. السراة: الأشراف، واحدهم سرى.

يطعمون الطعام في وقت الحاجة، وأشد وقت يحتاجون الناس فيه إلى طعام هو وقت الشتاء، عندما تهب الريح من الشمال، وطعامهم طيبًا مصنوعًا في قدور ضخام مملوءة بالطعام الكثير واللحم الناضج: "فِي قُدُورٍ مُشْبَعَاتٍ لم تُجَعْ"، ومن فرط كرمهم ينقلون اللحم الناضج من هذه القدور إلى جفان كبيرة، كل جفنة كأنها جابية كبيرة، والجابية هي حفرة الساقية المملوءة بالماء، أو بتعريف الشارح: الجوابي هو "الحياض الكبار التي يجبى فيها الماء"[1]، فكأنه شبه حفرة الساقية العميقة المتسعة بالوعاء الكبير الذي يحوي كثير من لحم الإبل سمينات الأسنمة. ويستمر في وصف قومه بأنهم أوفياء لا يغدرون ومن يجاورهم يشهد بوفائهم وقناعتهم بما يملكون، لا يحسدون غيرهم على ما معهم، وقومه مساميح يجودون بالنفيس والغالي، ولايبخلون به، قلوبهم طيبة نقية ليس بها أذى أو طمع.

وتتحد فكرة السطوع مع الفخر ليصف قومه بأنهم أصحاب الوجوه المشرقة البيضاء، فهم: "حَسَنُوا الأَوْجُهِ بيضٌ سادةٌ"، وهم السادة البيض التي تتلألأ قلوبهم، وصفاتهم بالشرف والشجاعة والمنعة عند البأس والحروب، فهم مراجيح أي أنهم يتسمون بالثبات، لا يخافون الجزع والفزع. ويفتخر "سويد" بأنهم مصدر الاستنجاد والاستغاثة إذا استنجد بهم الآخرين، ولذا فهم أصحاب العقول الراجحة التي تزيد وتزن على عقول الآخرين: "وُزُنُ الأَحْلاَمِ إنْ هُمْ وَازَنُوا"؛ وهم ساكنوا الريح أي ريح عقولهم ساكنه راسخة لا تهيج كالإعصار ذي الغبار الشديد الذي يكدر الدنيا، فهم هادئون حين يهوي ويتفرق غيرهم من الناس الذين يتطايرون كقطع السحاب البيضاء المتفرقة التي تهزها الريح بسرعة.

[1] الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٧٩)، المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ص ١٩٤.

يؤكد "سويد" التصاق صفة الشجاعة بقومه، فهم كالأسود في الانتقام من العدو؛ وتاريخ قومه يشهد لهم في التمسك بالمباديء والأخلاق الحميدة، من ذلك أنهم يتحملون ثقال الأمور من إنفاق المال الكثير للضيافة، وتقديم المساعدة في دفع الديات للصلح بين القبائل، ولكل هذه الخصال فإنهم لا يؤاخون إلا من كان مثلهم وشبيههم في صفاتهم كالمروءة والكرم والشجاعة وإنصاف المظلوم حتى يسترد حقه. وتبلغ اليتيمة غايتها لتركز على القيم الفكرية والأخلاقية للقبيلة ومبادئها السامية التي لا تقل شأنًا عن فكرة السطوع والقوة.

(٩)

كان امتزاج السطوع بالفخر واضحًا بالقوة والفعل في مقطوعة الفخر، ولم يكن "سويد" يستطيع أن يتصور السطوع بمعزل عن الفخر، مثلما تصوره من قبل مرتبطًا بفكرة القوة. لقد استطاع "سويد" أن يقدم إلينا ثلاثية السطوع والقوة والفخر بوصفها كيانًا واحدًا. ومثلما ربط من قبل السطوع بالفخر، يعود مرة أخرى ليربط الفخر بالقوة، وتجلى ذلك في الفخر الذاتي في اليتيمة، يقول "سويد"[١]:

٦١- كَتَبَ الرَّحْمَنُ والحَمْدُ لَهُ سَعَةَ الأَخْلاَقِ فِينَا والضَّلَعْ[٢]

٦٢- وإباءً للدَّنيَّات إذا أعطى الْمَكْثُورُ ضَيْمًا فكَنَعْ[٣]

٦٣- وبِناءً لِلْمَعالِي إنَّما يَرْفَعُ اللّهُ ومَنْ شَاءَ وَضَعْ

٦٤- نِعَمٌ لِلّهِ فِينَا رَبَّهَا وصَنِيعُ اللّهِ واللّهُ صَنَعْ[٤]

[١] اليشكري، سُويد بن أبي كاهل (١٩٧٢)، ديوان سُويد بن أبي كاهل اليشكري، ص ٣٠.

[٢] الضلع: بفتحتين، من الاضلاع بالأمور، يقال اضلع بحمله إذا قوي عليه.

[٣] المكثور: المغلوب. كنع: خضع.

[٤] ربها: أصلحها وأتمها.

٦٥- كَيْفَ باسْتِقْرَار حُرٍّ شَاحِطٍ بِبِلادٍ لَيسَ فِيهَا مُتَّسَعْ[١]

٦٦- لايُرِيدُ الدَّهْرَ عنها حِوَلًا جُرَعَ المَوْتِ وللموت جُرَعْ[٢]

يتألق "سويد" بالفخر الذاتي في هذه الأبيات من اليتيمة، حيث يصف ذاته بالقوة والمنعة والشدة، فهو ضليع بقدرته الفائقة على تحمل المسئولية، والقيام على أمور الناس، وقضاء حوائجهم سريعًا، كما أن دال: "سعة"، الذي استخدمه في هذا البيت، يعد استكمالًا لدال السعة والبسط، الذي استخدمه في مفتتح اليتيمة:

١- بَسَطَتْ رَابِعَةُ الحَبْلَ لَنَا فَوَصَلْنَا الحَبْلَ منها ما اتَّسَعْ

ومثلما كتب الرحمن له القدرة والقوة والتميز كتب له الترفع عن الدنايا، فيفتخر بصفة الإباء والمنعة، حتى إنه استخدم ضمير المتكلم بصيغة الجمع "نحن"، فيقول: نحن أهل منعة وعزة نفس وإباء وترفع عن النزوات المتدنية، ولا نخضع مثلما يخضع الإنسان الذي يتكالب عليه الأعداء فلا يجد نصيرًا، وهذا ما جسده دال "المكثور"، وهو الذي كثر عليه أعدائه، وحققوا الانتصار عليه، ودال "كنع" الذي يحمل معنى الذل والهزيمة.

وتتلاحم القوة مع الفخر تلاحمًا قويًا، وتصبح صفة القوة والمنعة متلاصقة بفكرة الفخر، وكأنها لازمة من لوازم "سويد" في استخدامها لترصيع الفخر بها. ويستمر في حمد الله على عطاياه، ويفتخر "سويد" بأننا نبني المعالى، وهذا عطاء الله لنا، فالله القادر يرفع من يشاء، ويضع من يشاء. وتتبدى الألفاظ الإسلامية في أبياته، ويتبدى إيمانه بقدرة الله عز وجل، حيث يعترف بأن القدرة الإلهية هي التي تحميه من مصائب الدهر ونوائبه، ومن ثم يخاطب أعداءه ويطلب منهم أن يتجرعوا جرعات الموت المريرة من غيظهم. ويصرح "سويد" بأن هذه نعم الله التي خصنا بها

[١] شاحط: بعيد.

[٢] حولًا: تحولًا.

دون غيرنا، وهذا صنيع الله الذي صنعه، ومن يستطيع أن يضاهي صنع الله. ويصف نفسه بالانتماء إلى قومه ويصور هول البعد عن قومه، وكيف يستطيع العيش بدونهم أو يستقر بعيدًا عنهم وهو صاحب القوة والعزة والإباء في بلاد ليس فيها اتساع بلاده، لا في الكرم والجود، ولا في سعة الأخلاق وفضيلتها. وهذا ما أكده دال "شاحط" الذي يوحي بالغربة والبعد، ودال(متسع) الذي يوحي بالبسط والاتساع والرخاء، ويوضحها قوله:

٦٥- كَيْفَ باسْتِقْرَار حُرٍّ شَاحِطٍ بِبِلادٍ لَيسَ فِيهَا مُتَّسَعْ[١]

أو على حد تعبير "طه حسين": "حين يكثر من حولك الأعداء، وتنتشر الخصومات، ويسعى بك الساعون، ويكيد لك الكائدون! وما أعرف شعرًا أجمل ولا أروع، ولا أبلغ في تصوير الرجل الشجاع، ذي القلب الذكي، والنفس الأبية، يصبر للعدو، ويتحداه غير حافل به، ولا آبه له"[٢].

وفي خضم الحديث عن الفخر والقوة والسطوع يستكمل "سويد" فخره وتحقيق الانتصار على الحاسدين والحاقدين من أعدائه، فيقول[٣]:

٦٧- رُبَّ مَن أَنْضَجْتُ غَيْظًا قَلْبَهُ قَد تَمَنَّى لِيَ موتًا لَم يُطَعْ

٦٨- وَيَرَانِي كالشَّجا فِي حَلْقِهِ عَسِرًا مَخْرَجُهُ ما يُنْتَزَعْ[٤]

٦٩- مُزْبِدٌ يَخْطِرُ ما لَم يَرَنِي فَإذا أَسْمَعْتُهُ ضَوْتِي انْقَمَعْ

٧٠- قَدْ كَفَانِي اللّهُ ما فِي نفْسِهِ ومَتَى ما يَكْفِ شَيْئًا لا يُضَعْ

[١] شاحط: بعيد.

[٢] حسين، طه (١٩٨٩)، حديث الأربعاء، الجزء الأول، ص ١٦٢.

[٣] اليشكري، سُويد بن أبي كاهل (١٩٧٢)، ديوان سُويد بن أبي كاهل اليشكري، ص ٣٠-٣٢.

[٤] الشجا: ما يعترض في الحلق من عظم ونحوه.

٧١- بِئْسَ ما يَجْمَعُ أن يَغْتَابنِي مَطْعَمٌ وَخْمٌ ودَاءٌ يُدَّرَعْ[١]

٧٢- لَمْ يَضِرْنِي غَيْرَ أنْ يَحْسُدَنِي فَهْوَ يَزْقُو مِثْلَ ما يَزْقُو الضُّوَعْ[٢]

٧٣- ويُحَيِّينِي إذا لَاقَيْتُهُ وإذا يَخْلُو لَهُ لَحْمِي رَتَعْ[٣]

٧٤- مُسْتَسِرٌّ الشَّنِّ لَوْ يَفْقِدُنِي لبَدَا مِنهُ ذُبَابٌ فَنَبَعْ

٧٥- سَاءَ ما ظَنُّوا وقد أَبْلَيتُهُمْ عند غايات المَدَى كَيْفَ أقَعْ[٤]

٧٦- صاحبُ الْمَنْزِرَةِ لا يَسْأمُها يُوقِدُ النَّارَ إذا الشَّرُّ سَطَعْ[٥]

٧٧- أصْقَعُ النَّاسِ بِرَجْمٍ صَائِبٍ لِيس بالطَّيْشِ ولا بالمُرْتَجَعْ[٦]

٧٨-فَارِغَ السَّوْطِ فما يُجْهَدُنِي ثَلِبٌ عُودٌ ولا شَخْتٌ ضَرَعْ[٧]

٧٩- كَيْفَ يَرْجُوَن سِقَاطِي بَعْدَ ما لَاحَ فِي الرَّأسِ بَيَاضٌ وصَلَعْ

برع سويد من خلال الفخر بنفسه أن يهجو أعدائه ويرسم صورًا رائعة لحساده، فيصف عدوه بأنه يراه كالغصة في حلقه، أو كالعظمة القوية التي تبدو بالشكل العارض في الحلق فلا يستطيع أن يبتلعها، ولا يستطيع أن يزحزحها من مكانها أو يخرجها بيده، وهذا ما جسده الدال: "شجا"، الذي يومئ إلى الشيء الذي يعترض بقوه في الحلق. ويزهو "سويد" بقوته أمام أعدائه الذين يغتابونه في الغياب، وإذا حضر أمام أعينهم، يعظمونه حتى يكاد يمشي فخورًا باختيال. ويصرح "سويد"

[١] وخم: غير مريْ. يدرع: يلبس.

[٢] الضوع: ذكر البوم. يزقو: يصيح. يقول "ليس له إلا الصياح".

[٣] الرتع: الأكل بشراهة.

[٤] أبلاه: أخبره.

[٥] المئرة: العداوة.

[٦] أصقع الناس: أشدهم ضربًا على الرأس.

[٧] فارغ السوط: أراد أنه لا يحتاج أن يضرب بالسوط، لأنه مسرع. الثلب: الكبير، الهرم من الإبل. الشخت: الدقيق النحيف الصغير. الضرع: الصغير السن.

بأن هذا العدو إذا ما سمع صوته أو رآه أخذ في التضاؤل والتخاذل والانسحاب من فرط وجوده القوي، أو بالأحرى: يتعاظم هذا العدو عند غيابه، ويضعف وينسحب بهزيمته عند حضوره. و"سويد" يحمد الله الذي كفاه وجنبه شر هذا العدو، لأنه يعوذ بالله من شرورهم، ويؤمن بأن عين الله هي الحافظة، فإذا كفاك الله، فإنك لا تضيع ولا يصيبك من حسادك ضررًا.

يعاتب سويد على الأعداء الذين يغتابونه، والغيبة صفة ذميمة، فهم يأكلون لحمه ويرتعون فيه؛ ويصور "سويد" هذه الغيبة بالمطعم الوخم الخبيث من ناحية، وبالداء الذي يدرع أو يلبس من ناحية أخرى. ويستمر "سويد" في وصف قوته مع عدوه حيث يصرح بأن حسد هذا العدو وحقده عليه لم يضره هو بل يضر صاحبه، وهذا العدو الذي يغتابني حسدًا وكرهًا لشخصي، فذلك لا يضرني أيضًا، وكأنه في حسده وفعله القبيح مثل صياح ذكر البومة القبيح بالليل، والبغيض صوته في النهار. ويستمر في وصف صفات العدو القبيحة التي يواجهها، ومنها البغض العميق له الذي يتبدى في النفاق الذي يخفيه، فكلما رآه حياه كذبًا ونفاقًا، أي بغضه داخل نفسه، وهذا ما أكده دال: "مُستسر"، ودال: "الشَّنِّ".

يفتخر سويد بقوته حين أساء العدو ظنهم فيه بالضعف، لكنه أبلاهم: "أبلتيهم"، وأظهر لهم قوته ومقدرته، فعرفوا بلائه الحسن القوي، ومن فرط قوته يشعل نار الحقد والحسد في قلوب أعدائه. ويفتخر سويد بأنه شاعر قوي اللسان فصيح الأداء، فهو يعترف بأنه لا يهتم بعدوه، فهذا ليس ضعفًا منه، ولكن لديه القدرة على إفحامه، فإذا هاجم عدوه هاجمه بالشعر القوي الخالي من العيوب. ويصف نفسه بأنه فارغ السوط، أي أنه فارغ البال، لا ينشغل ولا يهتم بأعدائه، على الرغم من قوته وقدرته على مواجهتهم، أو كما يقول الشارح القديم: " يستفرغ

سوطي مدى كل غاية، فلا يزاحمني في ميداني أحد، لأني أتقدم على الكل"[1]. إنه الشخص الحكيم المجرب الذي لاح الشيب في رأسه وسقط شعره.

(١٠)

وتتجلى القوة مع الفخر متضافرة مع السطوع في المقطع الأخير من اليتيمة، يقول "سويد"[2]:

٨٠- وَرِثَ البِغْضَةَ عَنْ آبائِهِ ... حَافِظُ الْعَقْلِ لِمَا كانَ اسْتَمَعْ

٨١- كَمَ مُسِرٍ لي حِقدًا قلبُهُ ... فإذا قَابَلَهُ شَخْصي رَكَعْ

٨٢- فَسَعَى مسْعَاتَهُمْ فِي قَوْمِهِ ... ثُمَّ لَمْ يَظْفَرْ ولَا عَجْزًا وَدَعْ[3]

٨٣- زَرَعَ الدَّاءَ ولم يُدْرِكْ بِهِ ... تَرِةً فَاتَتْ ولاَ وَهْيًا رَقَعْ[4]

٨٤- مُقْعِيًا يُرِدِي صَفَاةً لم تُرَمْ ... فِي ذُرَى أَعْيَطَ وَعْرِ الْمُطَّلَعْ[5]

٨٥- مَعْقِلٌ يَأْمَنُ مَنْ كَانَ بِهِ ... غَلَبَتْ مَنْ قَبْلَهُ أن تُقْتَلَعْ

٨٦- غَلَبَتْ عَادًا ومَنْ بَعْدَهُمُ ... فَأَبَتْ بَعْدُ فَلَيْسَتْ تُتَضَعْ

٨٧- لَا يَرَاهَا النَّاسُ إلاَّ فَوْقَهُمْ ... فَهْيَ تَأْتِي كَيْفَ شَاءَتْ وتَدَعْ

٨٨- وَهْوَ يَرْمِيهَا ولَنْ يَبْلُغَهَا ... رِعَةَ الجاهِلِ يَرْضَى ما صَنَعْ

---

[1] التبريزي، يحيى بن على الخطيب (١٩٨٧)، شرح اختيارات المفضل، ص ٩٠٦.

[2] اليشكري، سُويد بن أبي كاهل (١٩٧٢)، ديوان سُويد بن أبي كاهل اليشكري، ص ٣٢-٣٥.

[3] ودع: ترك.

[4] الترة: الوتر وهو الثأر. الوهي: الشق. الرقع: الإصلاح بالرقاع.

[5] الإقعاء في الناس كهيئة جلوس الكلب. يردي: يرمي. الصفاة: الصخرة الملساء. لم ترم: لم يرمها أحد لعظمها. الذرى: الأعالي. الأعيط: الجبل الطويل. المطلع: الموضع الذي يطلع منه ويشرف.

٨٩- كَمِهَــتْ عَيْنَــاهُ حتَّــى أبْيَضَّــتَا فهُــوَ يَلْحَــى نفسَــهُ لَمَّــا نَــزَعْ[١]

٩٠- إذْ رَأى أنْ لــم يَضِــرْها جَهْــدُهُ ورَأى خَلْقَــاءَ مــا فيهــا طَمَــعْ[٢]

٩١- تَعْضِــبُ القَــرْنَ إذَا نَاطَحَهَــا وإذاَ صــابَ بهــا الْمِــرْدَى انْجَــزَعْ[٣]

٩٢- وإذاَ مــا رَمَهَــا أَعْيَــا بــهِ قِلَّــةُ العُــدَّةِ قِــدْمًا والْجَــدَعْ[٤]

٩٣- وَعــدوٍّ جاهِــدٍ نَاَضَــلْتُهُ فِــي تَرَاخِــي الــدَّهْرِ عـنكم والْجُمَــعْ[٥]

٩٤- فَتَسَــاقَيْنَا بِمُــرٍّ نَــاقِعٍ فِــي مَقــامٍ لَــيْسَ يَثْنِيــه الْــوَرَعْ[٦]

٩٥- وارْتمَيْنَــا والأعــادِي شُــهَّدٌ بِنِبَــالٍ ذَاتِ سُــمٍّ قــد نَقَــعْ[٧]

٩٦- بِنِبَــالٍ كُلُّهــا مَذْرُوَبــةٌ لــم يُطِــقْ صَــنْعَتَها إلاَّ صَــنَعْ[٨]

٩٧- خَرَجَــتْ عــنْ بَغْضَــةٍ بَيّنَــةٍ فِــي شَـبابِ الــدَّهْرِ والــدَّهْرُ جَـذَعْ[٩]

٩٨- وتَحَارَضْــنَا وقالُوا:إنَّمــا يَنْصُــرُ الأقْــوامُ مَــنْ كَــان ضَــرَعْ[١٠]

٩٩- ثُــمَّ وَلَّــى وهْــوَ لا يَحْمِــي اسْـتَهُ طَـائِرُ الإتْـرَافِ عنْـهُ قـد وَقَـعْ

١٠٠- ســاجِدَ المَنْخِــرِ لا يَرْفَعُــهُ خَاشَــعَ الطَّــرْفِ أصَــمَّ الْمُسْــتَمَعْ

١٠١- فَــرَّ مِنِّــي هَاربــاً شَــيْطانُهُ حَيْــثُ لا يُعْطِــي ولاشَــيْئًا مَنَــعْ

---

[١] كمهت: عميت. نزع: كف.

[٢] الخلقاء: الصخرة الملساء.

[٣] تعضب: تكسر. صاب: وقع. المردي: الحجر الذي يرمى به.

[٤] الجدع: سوء الغذاء.

[٥] الجمع: الجماعات.

[٦] أراد بالمر: الكلام. الورع: الجبن.

[٧] ارتمينا: ترامينا.

[٨] المذروبة: المحددة. صنع، بكسر النون: الحذق.

[٩] الجذع: الشاب الحدث.

[١٠] الضرع: الضعيف من الرجال.

١٠٢- فَـرَّ مِنِّـي حِـينَ لا يَنْفَعُـهُ مُـوقَرَ الظَّهْـرِ ذَلِيـلَ المُتَّضَـعْ

١٠٣- ورَأى مِنِّـي مَقَامًـا صَـادِقًا ثَابِـتَ المَـوْطِنِ كَتَّـامَ الْوَجَـعْ

١٠٤- وَلِسَـاناً صَـيْرَفِيًّا صَـارِمًا كحُسَـامِ السَّـيْفِ مـا مَـسَّ قَطَـعْ[١]

١٠٥- وأتَـانِي صَـاحِبٌ ذُو غَيِّـثٍ زَفَيَـانٌ عِنْـدَ إنْقَـاذِ القُـرَعْ[٢]

١٠٦- قَـالَ لَبَّيْـكَ ومـا اسْتَصْـرَخْتُهُ حَـاقِرًا للنَّـاسِ قَـوَّالَ القَـذَعْ[٣]

١٠٧- ذُو عُبَـابٍ زَبِـدٌ آذِيُّـهُ خَمِـطُ التَّيَّـارِ يَرْمِـي بـالْقَلَعْ[٤]

١٠٨- زَغْرَبِـيٌ مُسْـتَعِزٌ بَحَـرُهُ لـيس للِمـاهِرِ فيـه مُطَّلَـعْ[٥]

١٠٩- هَـلْ سُـوَيْدٌ غَيْـرُ لَيْـثٍ خَـادِرٍ ثَئِـدَتْ أَرْضٌ عَليـهِ فَـانْتَجَعْ[٦]

في هذا المقطع الأخير من اليتيمة تتجسد ملامح ثلاثية السطوع والقوة والفخر، حيث يفتخر سويد بقوته في مواجهة أعدائه، وسطوعه في تحقيق الغلبة والنصر على أعدائه متفاخرًا بقوته وقوة قومه، ولهذا شبه قوة قومه بالصخرة القوية التي لا تتكسر ولا تتفتت ولا تنفك؛ وترتبط هذه الشبكة العلائقية الثلاثية (السطوع والقوة والفخر) ببعضها البعض، فكان الفخر الذاتي والفخر القبلي مرتبط بقوة "سويد" وقوة قومه، وسطوعهم في تحقيق انتصاراتهم القوية والتفاخر بها.

---

[١] الصيرفي: المتصرف في الأمور، المجرب لها.

[٢] ذو غيث: ذو إجابة. الزفيان: الخفيف السريع. أنفاذ: من النفاذ والانتهاء. القرع: جمع قرعة، وهي المزادة.

[٣] القذع: الكلام السيء القبيح.

[٤] العباب: تكاثف الموج واضطرابه. الآذي والتيار واحد وهما الموج. خمط التيار: مضطربة، متلاطمة. القلع: هي الصخرة العظيمة، والمراد هنا الأمواج العظيمة.

[٥] زغربي: الكثير الماء. المستعز: الذي لا يقدر عليه لكثرته.

[٦] خادر: الذي اتخذ الأجمة خدرًا. ثئدت: نديت. انتجع: طلب الكلأ في موضعه.

تمثل الأبيات الثلاثة الأولى من هذا المقطع وصف "سويد" لضعف عدوه، وجهده الضائع دون جدوى، للمحاولة من النيل من "سويد" وقومه. ولقد باءت هذه المحاولات بالفشل والانكسار، ومن ثم يفتخر "سويد" بأنه ورث القوة والجبروت من آبائه، حيث سجل عقله منذ الصغر الطعنات والضربات من عدوهم وغيبتهم لآبائه، وسمع بئس ما سمع، وحفظ عقله وسجل هذه المعارك. ويسرد "سويد" أكاذيب أعدائه التي مازالت مستمرة، ومع ذلك لا يفتر و لا يبالي، ويسخر "سويد" من عقل عدوه وتفكيره الخبيث في إشعال نار الشر والفتنة والضغينة، كما يصف حماقة عدوه ومجهوده الفارغ التافه، مثل من يقعد مقعيًا في قعوده وفي يده حجارة يريد أن يقذف بها صخرة قوية عالية على رأس جبل مرتفع، كما باءت محاولات الأعداء بالفشل حينما جاهدوا في اقتلاعها وتحريكها من مكانها، هذه الصخرة العالية القوية يقصد بها نفسه وقومه، هذه الصخرة غلبت الأمم، مثل قوم عاد ومن جاء بعدهم، لذلك لا يمكن إذلالها وخضوعها.

يفتخر "سويد" بالصخرة المرتفعة القوية، ويعترف بأن صخرتهم عالية لا يراها الناس، لأنها فوقهم ساطعة قوية، وهم سادة القوم وأعلاهم نأتي ما نشاء، ونترك ما نشاء، ولا يرانا العدو إلا ونحن فوقهم منزلة، وأعلاهم مكانةً، ومن فرط قوة هذه الصخرة وسطوعها أعيت الأعداء وتسببت في ضعف قواهم وأصابته بالعمى، وهذا ما أكده قوله: "كَمِهَتْ عَيْنَاهُ حتَّى أبْيَضَّتَا". لقد اكتشف العدو أن هذه الصخرة الخلقاء صلبة قوية تكسر وتفتت قرن من ينطحها، حتى ولو رُميت هذه الصخرة القوية بحجر المردي المعروف بقوته وصلابته، فإنه يتفتت ويتهشم:

٩١- تَعْضِـــبُ القَـــرْنَ إذَا نَاطَحَهَـــا وإذَا صَـــابَ بهـــا الْمِـــرْدَى انْجَـــزَعْ

هذه الصخرة الملساء الساطعة من أرادها بضر انقلب عليه هذا الضر والأذى، لأنه لا يمتلك القدرة والقوة على اقتلاعها نظرًا لضعف بنيانه وسوء تغذيته منذ الصغر. ويستمر "سويد" في الفخر بقوة قومه في صد محاولات الأعداء للنيل

مـنهم، ويقـول لأعدائـه نحـن القـوة المنتصـرة التـي سـاعدها الـدهر فـي الاسـتمرار لتحقيق الغلبـة والنصر عليكم، ثم وصف الخصومة مـع أعدائـه بالسم المنقوع فـي المـرارة والحنظـل؛ كمـا أنـه شـبه تراميهمـا بمـر الكـلام والخصـومة الجارحـة بينهمـا بالسهام، ولكنها سهام الشعر والبيان، وكأن هذا الشعر كالنبال الحادة: "المذروبـة"، وأشـار "الأنبـاري" أنـه "أراد بالنبـال الحجـة فـي الافتخـار ونشـر المكـارم"[1]؛ وأضـاف "التبريزي" بأن "سويدًا": "جعل نباله مسمومة، لاقتران الصدق بها، وسقوط البطلان عنها. وجعله بمشهد الأعداء لأنه أشد لتحرزه في كلامه من أن يغلب"[2]

ويصرح سويد في الأبيات الأخيرة من اليتيمـة بـأن العدو فرَّ منـه ومن قوة قومه مهزومًا ومعترفًا بأنهم أهل الشجاعة. ويفتخر "سويد" باعترافات العدو بـأنهم أهل الشـجاعة وأنهم أهل الصبر علـى الشدائد، ويفتخر بـأن العدو رأى من سويد وقومه لسانًا فصيحًا قاطعًا مثل السيف، ومن ثم يتبـاهى سويد بـأن شيطان خصمه فر منـه، ومن قوة بيانـه وانثيال شعره، أما شيطان "سويد" جاء بمدد قوي وجديد عندما ضعفت قوة أعدائـه، وصار هذا العدو كالذي يسير في الصحراء ونفد منـه مـاؤه الـذي فـي قِرَبِـهِ. فـي نهايـة اليتيمـة تعالـت نبـرة التبـاهي والفخـر لـدي "سـويد" فيصف نفسه بأنه كالأسد القوي الذي حين يجد الأرض قد ثئدت وفسد المكـان الـذي يقيم فيه ينتجع مكانًا غيره ليقيم فيه. إن "سويدًا" حقق ثلاثية السطوع والقوة والفخر من خلال الدرة اليتيمة.

[1] الأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار (١٩٢٠)، شرح ديوان المفضليات، ص ٤٠٦.

[2] التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (١٩٨٧)، شرح اختيارات المفضل، الجزء الثاني، ص ٩١٣-٩١٤.

ببليوجرافيا

- **الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (٢٠٠٨).**

الأغاني، تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، المجلد الثالث عشر، الطبعة الثالثة (لبنان، بيروت: دار صادر).

- **الأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار (١٩٢٠).**

شرح ديوان المفضليات، عني بطبعه ومقابلة نسخه وتذييله بحواشي وروايات لعدة لغويين وعلماء: كارلوس يعقوب لايل (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، علي نفقة كلية أُكْسفُرْد).

- **البغدادي، عبد القادر بن عمر (١٩٩٧).**

خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، الجزء السادس، الطبعة الثالثة (القاهرة: مكتبة الخانجي).

- **التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (١٩٨٧).**

شرح اختيارات المفضل، تحقيق: فخر الدين قباوة، الجزء الثاني، الطبعة الثانية (بيروت: دار الكتب العلمية).

- **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (١٩٦٥).**

كتاب الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الجزء الثاني، الطبعة الثانية (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي).

- **الجبوري، يحيى (١٩٨٦).**

الشعر الجاهلي: خصائصه وفنونه، الطبعة الخامسة (بيروت: مؤسسة الرسالة).

- **الجمحي، محمد بن سلام (١٩٨٠).**

طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، السفر الأول (جدة: مطبعة المدني).

- **حسين، طه (١٩٨٩).**

حديث الأربعاء، الجزء الأول، الطبعة الرابعة عشرة (القاهرة: دار المعارف).

- **حمدان، فتحي عبد المحسن محمد (٢٠١٠).**

قراءة في عينية سويد بن أبي كاهل، مجلة كلية التربية، القسم الأدبي، العدد ٣، مجلد ١٦ (القاهرة: كلية التربية، جامعة عين شمس).

- **أبو حمدة، محمد علي (١٩٩٥).**

في التذوق الجمالي لقصيدة سويد بن أبي كاهل اليشكري: دراسة نقدية إبداعية (الأردن، عمان: دار عمار للنشر)،

- **الخالديان، أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد (١٩٦٥).**

كتاب الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، حققه وعلق عليه: السيد محمد يوسف، الجزء الثاني (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر).

- **ابن رشيق، أبو على الحسن القيرواني الأزدي (١٩٨١).**

العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه وفصله وعلق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، الجزء الثاني، الطبعة الخامسة (لبنان، بيروت: دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة).

- **الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (١٩٩٨).**

أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الجزء الثاني، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية).

- **الشريف المرتضى، علي بن الحسين بن موسى (١٩٥٥).**

طيف الخيال، تحقيق: محمد سيد كيلاني، الطبعة الأولى (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده).

- **الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٢٦).**

المفضليات، ضبط وشرح: حسن السندوبي، الطبعة الأولى (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى).

- **الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٧٩).**

المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، الطبعة السادسة (القاهرة: دار المعارف).

- **ضيف، شوقي (٢٠٠٠).**

العصر الجاهلي، الطبعة الثانية والعشرون (القاهرة: دار المعارف).

- **الطيب، عبد الله (١٩٩١).**

قصيدة سويد بن أبي كاهل: بسطت رابعة الحبل لنا، شرح وتعليق.

- **ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (١٩٥٣).**

العقد الفريد، تحقيق: محمد سعيد العريان، الجزء الخامس (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى).

- **ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (١٩٨٢).**

الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، الجزء الأول (القاهرة: دار المعارف).

- **قنوت، مها (١٩٩١).**

سويد بن أبي كاهل اليشكري: حياته وشعره، الطبعة الأولى (دمشق: مها قنوت).

- **محمد، سامي جاسم (٢٠١٣).**

طيف الخيال في الشعر الجاهلي: بواعثه وتجلياته، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد ٢٠، العدد ٧ (العراق، تكريت: جامعة تكريت للعلوم الإنسانية).

- **ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (١٩٥٥-١٩٥٦).**

لسان العرب، المجلد الثاني عشر (بيروت: دار صادر).

- **ناصف، مصطفى (١٩٩٢).**

صوت الشاعر القديم (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب).

- **اليشكري، سُويد بن أبي كاهل (١٩٧٢).**

ديوان سُويد بن أبي كاهل اليشكري، جمع وتحقيق: شاكر العاشور، مراجعة: محمد جبار المعيبد، الطبعة الأولى (العراق، البصرة: دار الطباعة الحديثة).